قراءات نقدية

في

الشاعر وشعره

(من الصحف والمجلات)

١٩٨٣/٣/٤
قصيدة
الالتزام
في ديوان الدكتور
رجا سمرين
قراءة في كتاب
الإنسان قضية في قصائد رجا سمرين
بقلم: شهاب محمد
ثقافة
رجا سمرين.. رؤية تأريخية لتجربة العقاد الشعري

مقـــدمـــة

هذا الملف يضم مجموعة من القاراءات النقدية بعدد من قصائد الدكتور رجا سمرين التي نشرت في صحف ومجلات العالم العربي... وكان أن تم جمعها وطباعتها هنا... أما القراءات النقدية فهي على التوالي:

- طوائف من آراء الكتاب والنقاد حول الشاعر وشعره.
- الإنسان قضية في قصائد رجا سمرين، بقلم الأستاذ محمد شهاب.
- الالتزام في ديوان الدكتور رجا سمرين، بقلم الأستاذ منير الزواوي.
- قصيدة في الميزان، بقلم الدكتور عز الدين الجردلي.
- التفوق الموضوعي في التجربة الشعرية (الحلقة الأولى)، بقلم الدكتور عز الدين الجردلي.
- التفوق الموضوعي في التجربة الشعرية (الحلقة الثانية)، بقلم الدكتور عز الدين الجردلي.
- رسالة إطراء .. الرسالة غير مكتملة.
- قراءات نقدية (من صفحتين) نشرتها جريدة الدستور الأردنية 2014م.

طائفة من الآراء في الشاعر وشعره

فيما يلي، طائفة من الآراء التي أدلى بها بعض الكتّاب في شاعرنا وشعره، وسنأتي بالتفصيل عن بعض ما توفر منها والمنشورة في الصحف والمجلات:

يقول الأستاذ **أكرم الشقيري** في مقدمة حوار أجراه مع الشاعر عام 1980م، ونشره في العدد رقم (6094) من جريدة الرأي العام الكويتية: "عرفته عن كثب لسنوات خلت، فعرفت فيه الصدق والالتزام في خطه واتجاهاته، وتسخير قلمه شعراً ونثراً في خدمة وطنه، ونصرة قضايا أمته. يعيش مآسيها، ويتفاعل مع أحداثها.

يتألم بآلام شعبه المشرد، ويشقى بشقاء أمته المغلوبة على أمرها. فهو إذن التزام أدبي وخلقي ووطني، وتلك في يقيني مقومات الشاعر إلى جانب موهبة يصيغها الله فيه صياغة، ويصبها صباً فتغدو سليقة وطبعاً."

ويقول الناقد الأستاذ **ناجح خليل** في مقدمته للحوار الذي أجراه مع شاعرنا عام 1981م ونشره في العدد رقم (493) من مجلة مرآة الأمة الكويتية: "الدكتور رجا سمرين واحد من الذين يمارسون أدواراً متعددة في المحافل التربوية والأدبية، وذلك بحكم شخصيته الأدبية التي تتسم بأبعاد متنوعة، فهو موجه للغة العربية بوزارة التربية، ومقدم بارع للأمسيات الأدبية، وخطيب مفوّه، وشاعر رقيق، ومحاور ذكي لماح واسع الأفق."

وتقول الكاتبة الأستاذة **سهام عبدالهادي** في مقدمتها لحوار أجرته معه عام 1980م، ونشرته في العدد رقم (681) في مجلة النهضة الكويتية: "الدكتور رجا سمرين الإنسان الشاعر الرهيف، الذي يجمع بين الجدّ والرصانة والدماثة، وهدوء الطبع، وعمق التفكير، وحلاوة الديباجة، وقوة الشخصية...

الدكتور الشاعر، وما كل يوم يولد شاعر... وحقنا أن نفرح بولادته وهو الشاعر الملتزم بقضايا بلده، والدفاع عن مقدساته بصدق وإيمان وحرارة."

وتقول الكاتبة الصحفية **يسرا الأسمر** في معرض تقديمها الشاعر إلى القراء، في مقدمة الحوار الذي أجرته معه عام 1984م، ونشرته في العدد رقم (641) من مجلة مرآة الأمة الكويتية: "الدكتور رجا سمرين شخصية أدبية عُرفت بمواقفها المنافحة عن التراث في وجه من يحاولون النيل منه، والحط من قيمته. وفي كل كتاباته الأدبية كان الصوت الجريء الذي يقف بحماس إلى جانب الموروثات الشعرية بكل تقاليدها. وهو إلى ذلك شاعر ملتزم قلّما سُمع له شعر غير الشعر النضالي في الأمسيات الشعرية."

ويقول الأستاذ الناقد **منير الزواري** في مقاله الذي نشره عام 1985م عن الديوان الثاني للشاعر في العدد رقم (1140) من مجلة الرسالة الكويتية:

"إن أهم ما يلفت الانتباه في الديوان هو طغيان القصائد ذات النزعة القومية لدى الدكتور الشاعر... وإن الشاعر قد اتخذ من الشعر منبراً يُعبر من خلاله عن هموم هذه الأمة وصراعها الطويل مع الاستعمار. وهو ما اصطلح النقاد على تسميته بالالتزام. وهو من وجهة نظرنا أرقى أنواع الالتزام."

ويقول الأستاذ الناقد الدكتور **كامل السوافيري** – رحمه الله – في مقال نشره عن (ديوان الدكتور رجا سمرين – وتبقى الفوارس قرب الجياد) بتاريخ 1986/1/17م في جريدة الدستور الأردنية:

"ونظراً لأن الشاعر من الشعراء الذين أوجدتهم مأساة فلسطين، وفجرت في قلوبهم ينابيع الشعر، نلاحظ أنه استلهم مأساة بلاده في أكثر قصائده. ومن خلال هذه القصائد التي قدمناها في الجوانب الوطنية والقومية والاجتماعية والإنسانية نستطيع أن نصدر حكماً على الدكتور رجا سمرين بأنه شاعر رُزق الموهبة الشعرية، وأوتي طاقة فنية متسقة، وأنه يجيد نظم الدرر، وأن لديه من الثروة اللغوية ما يتيح له استخدام الألفاظ والكلمات المشعة ذات الظلال. وأنه حافظ في أسلوبه الشعري، وفي صياغة جمله وعباراته على قواعد اللغة العربية وضوابط إعرابها. وتوخى السهولة والرقة في

ألفاظه. وكان صادقاً كل الصدق في التعبير عن عاطفته نحو بلاده، ونحو عروبته وأمته، فما عبَّر في شعره إلا عم يضطرم في جوانحه."

ويقول الأستاذ القاص **حسن عبدالهادي** في مقال له عن الديوان ذاته نشره في جريدة الوطن الكويتية:

"الشعر ملكة نادرة لأنه لا يأتي إلا من النفوس العظيمة التي أنبتتها التربة الطيبة، وأنضجتها التجربة العقلانية الواعية. والدكتور يملك الملكة والتربة الطيبة معاً. ولا يخرج الطيب إلا من الطيِّب أبداً. فقد زرع في ديوانه هذا حبة قمح لا أغالي إذا قلت أنها ستنبت في نفوس محبيه من أبناء جيلنا والأجيال القادمة عشر سنابل، فشكراً للكلمة الطيبة حين تأتي بالخير في زمن الجدب والخواء.

ويقول الدكتور **عبدالقادر كراجة** في مقال له نشره في العدد رقم (7719) من جريدة الرأي العام الكويتية، "للدكتور رجا سمرين صدر ديوانه الجديد الذي ضمنه لواعج نفسه، ونفحات صراعه كمثقف عربي باحث عن الحقيقة في زمن أصبح قول الحقيقة فيه ضرباً من ضروب التخوف."

في هذا الديوان ينتقل الدكتور من موضوع إلى آخر مدركاً لأبعاد اللعبة الشعرية، متمكناً من بحور الشعر، ممسكاً بدفة المشاعر، حتى أنك لتحسب هذا النوع من الشعر غريباً على الأذن والعين لجودته في زمن أصبح فيه بائع الحلوى شاعراً... شعر هذا الرجل من النوع الجزل القوي، يختار فيه الكلمة بعناية ويضمنه جرسه الفني ببراعة المحترف، وإبداع الخيال المتقد. من الحزن إلى الألم والشكوى... ثم يحلق بك إلى سماء الهم العربي حتى لتحسب نفسك وأنت تقرأ تلك الأشعار أنك تسير معه في قطار سريع الحركة يمر على مختلف العصور والحياة والمراحل التي مرت بها حركة الشعر العربي.

هو مؤمن بشعر تكاد أعداد من يقرضه لا تزيد على أصابع اليدين. ففي غزلياته يقترب من شعر الفحول، وفي مرثياته تشم رائحة محمود درويش، وفي أحزانه الذاتية تحسبه الأعشى. لقد حلق في القوافي فطوعها لخدمة الموضوع، فبحور الشعر عنده تُختار وتُتسدعى حسب إيقاع الهم الذي

يشاغله ويحرك قريحته. هو لا يحشر الكلمات حشراً، ولا تجده يتصبب عرقاً حينما يبحث عن رمز من الرموز.

أعجبت جداً بديوان هذا السمرين الأسمر الملتاع الفؤاد، واكتشفت همي وأنا أقلب صفحات الديوان. وأعتقد أن القارىء سيجد متعة فكرية كبيرة حينما يضطلع عليه."

وفي ختام دراسة نقدية حول قصائد الشاعر في رثاء ولده الشهيد محمد – طيب الله ثراه – يقول أستاذ النقد الأدبي في كلية التربية الأساسية الدكتور **عزالدين الجردلي:** "إن شعر رجا سمرين شعر يتفوق في موضوعيته لأن المعاني التي يتعرض لها هي المعاني التي تمس قلب القارىء وتؤثر فيه حتى لو قدمت مباشرة أو بقليل من التصوير الفني، والأسلوب الإيحائي الذي يسمو عادة بموضوع التجربة الشعرية إلى آفاق التجلي الشعوري.

هذه المعاني تملأ نفسية كل عربي يشعر بالضياع والفقد وتيه القصد، فما أن يقرأها – ولو كانت بثوب وصفي تقريري – حتى يحس أنها تعبر عن موقفه وقضيته في الإطارين الخاص والعام. ومن ثم يتفاعل بها، وقد شعر بالراحة النفسية، والرضا الوجداني، وتلك لعمري هي لحظة قبول الشعر والسماح له بالدخول في دائرة المعالجة الفنية.

وهو ما أشرنا إليه سابقاً من أن الشاعر يسمو في بعض المواقف خلال التجربة إلى درجات من التحليق الفني في آفاق التصوير الشعوري الإيحائي إلى جانب تفوقه الموضوعي".

ويقول الدكتور **محمد شحادة عليان** في كتابه "الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث": "وفي قصائد الدكتور رجا سمرين تصوير دقيق لحياة اللاجئين ومآسيهم، وما يكابدونه من آلام وأوصاب. فهو أحد أبناء النكبة الذين اكتووا بنارها. وهو يهيب بكل حر يأبى الضيم أن ينفض عن نفسه الذل والهوان، ويثوب إلى الواقع البائس الأليم الذي يرزخ تحت نيره اللاجئون، وهو بتصويره لحياة اللاجئين وأوضاعهم البائسة يدعو للتخلص من حياة الخيام والسعي من أجل العودة.

لقد راع الشاعر ما شاهده من مصائب ومحن وأهوال، وإذلال ونوازل تحيط بشعبه، وحياة قاسية لا تبقي ولا تذر، فعجب من أمة غارقة في سباتها، لا تفزعها كارثة هذا الوطن وشعبه وكأنهم من

كوكب آخر. لقد رأى مظاهر الخنوع والرضوخ للذل متفشية في بني أمته، وهو الذي يريدهم أهل عزة وفخار ليهبّوا هبة رجل واحد يدافعون عن حق أصيل، ويذودون عن مقدساتهم، ويحمون مسرى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم."

ويقول الناقد التونسي الأستاذ **كمال العريف** في مقدمته لديوان الشاعر الثالث "الطريق إلى أرض ليلى": "هنا شعر متعدد الأشكال والأساليب، ولكنها أشكال وأساليب ألفها الذوق العربي، وكرستها التجارب الشعرية الناضجة القديمة والحديثة على السواء. وهنا شعر يشرف الشعر، فهو يتغنى بالجمال ويحببه للناس، ويوقظ الضمائر النائمة على واقعها الأليم، ويستنفر الطاقات المخدرة بالشعارات المستهلكة، ويعبئها لخدمة أهداف الأمة في التخلص من أوزار قرون العبودية والظلام وتحرير الأرض التي اغتصبها كل طامع.

إنه بكلمة واحدة يسمي الأشياء بمسمياتها دون لف أو دوران أو مواربة. وحتى شعر المناسبات التي تقرأ نماذج منه إن هو إلا تسجيل لبعض الأحداث العائلية التي هاجت قريحة الشاعر، أو تحية، أو عتاب لبعض أصدقائه وخلانه، أو تهنئة للكويت بعيد استقلالها. والكويت هو البلد العربي الذي آوى الشاعر، وأكرم وفادته، واعترف بقيمته، وعرف كيف يفيد منه. والكويت من قبل ومن بعد غرة في جبين العرب.

ثم إن الشاعر في هذه القصائد القليلة لا يلبث أن يخرج من الخاص إلى العام، ويحملها تلك المعاني النبيلة التي وقف شعره بل حياته على تجليتها وبثها والمنافحة عنها."

وكما أشاد الكتاب بشاعرنا وشعره، فقد أدلى عدد من الشعراء بدلوهم في هذا المجال. والشواهد على ذلك كثيرة يجدها القارىء الكريم في ديوانه "**بيني وبين الشعراء**".

الإنسان قضية في قصائد "رجا سمرين"

بقلم: الأستاذ شهاب محمد

هذه القراءة بقلم الأستاذ شهاب محمد، وقد نُشرت في جريدة الأنباء الصادرة في الكويت بتاريخ 1986/2/7. ونُشرت كذلك في جريدة فلسطين اليوم في عددها الصادر رقم 28 بتاريخ 2000/7/1.

نطالع باستمرار محاولات عديدة للتحديث في الشعر، ونقرأ بين حين وآخر العديد من القصائد التي يعتقد أصحابها بأنها بلغت حدّ الكمال في لغتها وصورها وبنائها تحت عناوين مبتكرة للإثارة، وفي هذا السياق سمعنا كثيراً عن قصائد فولاذية، وقصائد كيميائية.. وعنقودية.. إلخ...

إلا أن مسألة التجديد في الشعر على الرغم من جنون هوامشها ظلّت ولزمن طويل تأخذ شكل التطوير في مضمونه وأغراضه وبنائه، في حركة تلقائية وعفوية، هي أبعد ما تكون عن الافتعال والتكلف، وفي تسلسل زمني منطقي، حيث استطاع عدد من الشعراء أن يتركوا بصماتهم في حركة الشعر العربي المعاصر. وأن يجعلوا من تجاربهم الشعرية وقصائدهم منارة فكرية وحضارية ومتعة حقيقية ومادة مؤثرة، لها كل مواصفات المرحلة التحضيرية لوثبة المجتمع في مسار التطور الاجتماعي والسياسي والثقافي والحضاري بشكل عام.

ومن هؤلاء الشعراء عدد نالت قصائدهم كل اهتمام وتركت أثراً واضحاً في الحياة الثقافية العربية، وعدد آخر لم تنل أشعارهم حقها الطبيعي حتى في العرض والتحليل والمتابعة على الرغم من امتياز التجربة وغزارة الإنتاج.. وقد يكون السبب في ذلك عائداً لاعتبارات كثيرة من أبرزها ما يلي:

أولا: عدم اهتمام هؤلاء الشعراء في نشر نتاجهم، ومتابعة نشاطهم الشعري بمراسلة الصحف والمجلات الأدبية والفكرية وانصرافهم لمتابعة أعمالهم ومتطلبات الحياة اليومية التي تثقل بأعبائها كاهل كثير من المبدعين، خاصة وإذا ما اعتقدنا بأن الشعر يورث الفقر في أحيان كثيرة، خاصة في

مرحلة لم يعد فيها ناطقاً رسمياً بلسان هذه القبيلة السياسية أو تلك، ولم يعد فيها صوتاً لهذا الزعيم أو ذاك.

ثانياً: قصور المؤسسات المعنية، ودور النشر الرسمية منها والشعبية وانصرافها الدائم لمتابعة وملاحقة الأعمال ذات الطابع النجوميّ.. سعياً وراء الكسب المادي فقط، ولتحقيق الأرباح الطائلة دون التفات لمسؤوليتها في توثيق الأعمال الجادّة، ونشرها وتوزيعها لتحقيق التواصل في مسيرة الأجيال الثقافية، وهو ما دفع بعدد من المبدعين لطباعة نتاجهم الأدبي والفكري بعيداً عن استثمارات واحتكارات الدور المعنية.. وما دفع بآخرين إلى دفع مبالغ معينة مقابل استخدام أسماء المؤسسات على أغلفة الكتب، كمظهر اجتماعي ترفيّ، يظن أصحابه بأنه يجلب لأعمالهم التقدير والاحترام.

ثالثاً: انغماس بعض الأجهزة الإعلامية الرسمية في الترويج لمختلف فنون التسلية والترفيه بعيداً عن معايشة الأنشطة الثقافية الجادة.

على أن مسألة التواصل الثقافي في أقطار الوطن العربي.. وافتقار العلاقة بين أقطاره لتبادل المنفعة المشتركة جعلت من القارىء يتقوقع في دائرة منشورات هذا القطر، أو ذاك، مما ترك أثراً سلبياً في محاولات التعرف على إبداعات الشعراء والكتاب والأدباء في هذه الأقطار، ويستثنى من ذلك بالطبع كل نتاج شعري أو أدبي في مستوى القمم التي استطاعت أن تكسر حاجز القطيعة، وأن تقتحم صعاب الاتصال والتواصل.

ومن هذه الإبداعات كتب كثيرة صدرت وتصدر، وفيها ما يمكن للقارىء أن يستخلصه، ويضعه في دائرة الاهتمام.. وإذا كانت الكتابة حول هذه الكتب لا تعتبر حكماً قاطعاً في قيمتها الفنية، فإن الاكتفاء بأسلوب الشرح والتفسير في العرض يعفي من أخطار الوقوع في شرك إصدار الأحكام، لأن العمل الجاد والعطاء المميز يدفعك تلقائياً للمخاطرة والإبحار في أعماق النفس الآدمية واستخلاص النتيجة المثمرة.

اعتناق الشهادة:

وفي البداية وقبل أن نغوص في أعماق التجربة الشعرية للدكتور رجا سمرين... نتصفح مظهر ديوانه الخارجي.. ونلاحظ طباعته الأنيقة.. وهذا الديوان واحد من الكتب التي تجشم صاحبه مشقة طباعته ونشره.

يضم الديوان ثمانين قصيدة، أغلب الظن أن الشاعر كتبها في الفترة من 1950–1985، وهو بالتأكيد لا يحتوي كافة القصائد التي نظمها في هذه الفترة.. بل هي مختارات وزعها في ديوانه إلى قسمين: القسم الأول بعنوان "وتبقى الفوارس قرب الجياد"، والثاني بعنوان "الضائعون".

من أبرز قصائد الديوان قصيدة "محمد يا ولدي" وهي في رثاء ولده الشهيد، الذي أهداه ديوانه قائلاً: "إلى روح ولدي الشهيد محمد الذي سطّر بدمائه الزكية صفحة خالدة من صفحات البطولة والفداء وإلى أرواح رفاقه النبلاء من شهداء شعبنا الأبرار."

هذه القصيدة تعبر عن لهفة الأب الذي فقد ولده شهيداً فوق أرض المعركة، وتجسد حزنه عليه، وفرحته بانتصار الحق في استشهاد هؤلاء الأبطال الذي لبّوا نداء الواجب، وجعلوا من دمائهم مشاعل تنير الدروب المظلمة.

ماذا أقول حين أرثيك؟

وماذا في يدي؟

إنا لفي خسر وخذلان وقهر سرمدي

لم نرفض الذلة، لم ننهض لدرء المعتدي

وأنت والصفوة من إخوانك الثوار

ملح هذا الزمن الردي

أجل، إننا لفي خسر وخذلان.. وإننا لفي قهر سرمدي.. ولكن هذا القهر وهذا الخذلان لن يقودنا إلى الاستسلام، ولا يتوغل في أعماقنا ليحتل فيها الإرادة، بل إنه لا يكاد يصمد في النفوس التي يحركها الصفاء والتضحية والفداء:

يا ولدي ما أروعك

وأنت تفدي أربعك

يا ليتني كنت معك

وأنت تلقي مصرعك

كيما أقبل الجبين قبلة أو قبلتين

كي ألثم العينين مرة أو مرتين

غاية في الجمال اللامتناهي.. والشعور المطلق بإحساس المسئولية.. وتجسيد رائع لكل إرث التضحية والشهادة والفداء.. في كلمات معدودة.. تنقلنا على الفور لصورة ذلك الرجل المسن الذي تناول الرشاش من يد زميل ولده الشهيد وراح يطلق النار فرحاً باستشهاده.. وصورة الأم الفلسطينية المكررة في حياتنا باستمرار... والتي تطلق الزغاريد ودم ابنها ينزف بغزارة.. إنها نقيض طبيعي لما يحدث في الكيان المحتل، والفارق في ذلك حضاري وجذري.. إنه الفارق بين من يعتنق الشهادة ديناً، وبين من يعتبر الموت خسارة وفناء.. ولكن هذا الفارق لا يمنع قلب الأب من أن يخفق بالحب، وأن يعبر عن الشوق واللهفة واللوعة في اتزان كامل.

جن شوقي إلى لقاك فعد لي يا حبيبي

فقد أطلت الغيابا

لم يعد للوجود عندي معنى

صار فقراً يبابا

ليتني كنت من أهالوا عليه يوم واروك ياحبيبي الترابا

لا تلمني إذا أضعت اتزاني

لا تلمني إذا فقد الصوابا

لا تلمني فإن فقدك نار

تورث الهم والأسى والعذابا

ومرثيات أخرى:

أما قصيدته الثانية.. في الذكري الثانية لولده الشهيد، فقد حملت الكثير من المعاني الإنسانية والألم الذي يعتصر ذاته، والأسف البالغ للأحوال السائدة:

هلا تمهلت من قبل الفراق لكي

تودع الأهل والأحباب يا ولدي

فما عرفتك إلا واصلاً رحماً

ولا عرفتك إلا آخذاً بيدي

أقول والنار تشوي خافقي كمداً

يا ليت أني لم أولد ولم ألد

أوليت أن دماءً منك قد بذلت

قد حررت ربوة في القدس أو صفد

أطل من شرفة الفردوس يا ولدي

تلق الأعاريب في خلف وفي بدد

قد أدمنوا الذل حتى لم يعد لهم

في الكون وزنا وإن كانوا ذوي عدد

وهاتان القصيدتان ليستا المرثيتين الوحيديتين في ديوان الدكتور رجا سمرين، فقد سبق له وأن رثا شهداء فردان: القادة الثلاثة: كمال عدوان، وأبو يوسف النجار، وكمال ناصر الشاعر الفلسطيني المعروف.. في قصيدة ذات إيقاع مميز:

لكنما الشهداء لا يحلو لهم...

ندب ولا يرضيهم أسوان

ولذا أتيت أزف عتبي للألى

ناموا غداة تزلزل "الفردان"

إني لأسأل والأسى يجتاحني

لبنان، عل يجيبني لبنان

وفي رثاء له في صديقه الأستاذ إبراهيم عابدين قال:

سقيا لقبر حوى علماً وفلسفة

وطيب نفس وعزما زين بالخفر

عزاؤنا فيك أن العمر عارية

لم يحظ بالخلد إنسان من البشر

لو كان في الدمع ما يشفي لواعجنا

لظل يهمي على الأحباب كالمطر

وفي تحية منه للعقاد في ذكراه.. في قصيدة نظمها عام 1966 قال:

حيوا الجلالة في أسمى معانيها

والعبقرية في أبهى مغانيها

وسائلوا الفكر من أعلى مراتبه

وربة الشعر من ذكى مجانيها

يكفيه فخراً بأن الله حصنه

فلم يؤله طغاة في كراسيها

وفي تحية أخرى لزعيم الكونغو، وشهيد الحرية "باتريس لومومبا" نظمها عام 1961 يقول:

لومومبا أغنية حلوة

قرعت أسماع الأدغال

فأفاقت تحطم في قوة

عنها حلقات الأغلال

ومضت أسراب الأحرار

أبناء قبائل بالوبا

تتدفق من خلف لومومبا

تهتف من أجل الحرية...

البعد الرابع يغتال الأبعاد:

وإذا كنا قد بدأنا باستعراض سريع لمرثيات الديوان فإن ذلك جاء في سياق الرغبة لإظهار الجانب الإنساني الذي يزخر بمضامين الحزن والألم في النفس البشرية، وللاستدلال على مدى تأثر التجربة الشعرية بالأحداث وإيقاعها في نفس الشاعر.. ومدى الدور الذي لعبته في بلورة التجربة، وتفجير الطاقة الإبداعية.. غير أن الديوان يضم عدداً كبيراً من القصائد التي لا تفيها هذه العجالة حقها في المناقشة والتحليل.. فقصيدة "الناس والأبعاد" مثلاً، واحدة من القصائد التي حاول الشاعر أن يقول لنا فيها أننا نعيش في عصر ملىء بالتحديات.. عصر تسقط فيه القيم.. وتتهاوى، ويصبح فيه الفرد عبداً أو صفراً بين أرقامه وأدواته وآلاته، ويطالبنا في هذه القصيدة بأن نترك أثراً في جوف الغول.. وأن نؤدي مهمة إنسانية كبيرة.. وأن نتدفق في حرارة العبارة، وأن نرسم لوحة.. أن نطلق صرخة.. أن نسجل موقفاً.. أن ندرك في الرعب شجرة، في تناغم بين ما هو مجردّ وحسيّ وتجانس يؤدي وظيفة في إيقاع رتيب.

الواحد ليس له شأن بين الأرقام

الصفر هو العدد الأكبر

البعد الثالث جار على البعدين

الأول والثاني..

نسى الناس البعد الرابع

والبعد الرابع غول تغتال جميع الأبعاد

ما أروع أن تترك أثراً في جوف الغول

قولاً.. فعلاً.. رقماً.. شجرة

وهنا نلاحظ أن الشاعر لم يتخل عن الموروث في فكرته حين هو أكد عليه بأسلوبه الشعري، فأعاد إلى الأذهان على الفور المأثور من أقوال الشعراء: الناس صنفان: "موتى في حياتهم، وآخرون ببطن الأرض أحياء."

ثم ينتقل في لغته وصوره راسماً بين نبضه صورة لحقيقة المجتمع الذي يعاني من آفاته والحياة سالبها وموجها..

لسنا في عصر البدهيات أو الكهنوت

من قال بأن المرء يجيء.. يعيش.. يشب .. يموت؟

الناس طوائف منهم من لا يأتي قط

أو يأتي ثم يعيش.. يعيش.. يعيش..

أو يأتي ثم يموت.. يموت.. يموت..

غير أن الصورة المتشائمة التي رسمها في نهاية قصيدته، جاءت منفرة للوهلة الأولى، ولكنها ربما تكون الإنذار المبكر للنهاية القاسية التي تنتظر في حسابه البسيط الذي اعتمد أرقاماً حررها من وظيفتها الأساسية لتغطي مدلولات أخرى في إطار النظرة الجادة للحياة.

يا قادم من أعماق الظلمة

لا تحلم ببزوغ الفجر

فالهولة لن لتد الأملاك

والناس تظن أن ثلاثة – واحد

يبقى اثنان

العشرة + عشرة تصبح عشرين

وسيأتي يوم تتلاشى فيه الحلقة

ليعود الإنسان السنجاب إلى الغابة

يقفز في جذل وجنون فوق الأغصان

صورة قاتمة للحياة البشرية المستقبلية، قد تعبر عن حقيقة التطور المنطقي لما يعانيه الإنسان على يد أخيه الإنسان.. وقد تؤدي فعلا كل هذه المرارات والعذابات لطيش أحمق ينقل البشرية جمعاء إلى ما وراء العصور المظلمة.. إذ لا يمكن أن يحلم فرسان الظلام ببزوغ الفجر، ولن يفرحوا بضياء القمر، والجهات المقامرة التي تلهث وراء الإثارة والسطوة والنفوذ لا يجوز لها أن تحلم بعالم مغاير، تنفرد فيه بوحدانيتها لأن الخسارة في كل الحالات ستكون كاملة وشاملة، وأن الخراب والدمار سيكون عاماً وطاماً، وأن الإنسان هو الإنسان الذي يظل غير قادر على شق طريقه بين وعورة الأرقام، وحسابات برامج النجوم، وحروب الكواكب.. لذلك سوف يجد نفسه وجهاً لوجه أمام بداياته الأولى، وشجرته القديمة إن بقي له شجر.. أو بقيت له حياة

الحق الضائع:

وفي الجزء الأول من ديوان الدكتور رجا سمرين تجد عدداً من القصائد المختلفة في موضوعاتها.. بعض القصائد وطنية، وبعض القصائد ذات الطابع الإنساني والوجداني، وبعض القصائد ذات الطابع الاجتماعي الذي بدأ ينحسر في مسيرة الشعر العربي المعاصر، ومن هذه القصائد "سعد الكرام" وهي تحية موجهة إلى أستاذ الخط العربي بمعهد التربية للمعلمين في الكويت سابقاً... كتبها عام 1982، "وعاشق الحقيقة" مهداة للدكتور فتحي الدجني بمناسبة صدور كتابه "الإعجاز النحوي في القرآن الكريم"، وقصيدة "يا شاعر العاص" مهداة إلى الشاعر السوري المرحوم علي دُمّر كتبها عام 1961.

إلا أن هذه القصائد هي في واقع الأمر لم تكن بعيدة عن هموم الإنسان ومعاناته اليومية وهذه النماذج الفاعلة في المجتمع كان قد اختارها ووقعت عليها عدسته الشعرية لينبه إلى كون الإنسان وحدة عاملة في مجتمع يتفاعل.

أما الجزء الثاني من الديوان فقد اشتمل على قصيدة الضائعون، قصة حمراء، وهكذا الحياة، وأعجوبة الزمان وأخريات من القصائد التي تتمشى مع أغراض الشعر في مطلع الخمسينات.

وإذا كان لا بد من كلمة في النهاية، فإننا لا نملك إلا أن نردد مع من سبقونا القول: "إن الأديب في شرقنا يموت حيًّا ويبعث ميّتاً"، وأنه لمن المناسب أن نقول كذلك: لقد آن لنا وحق علينا أن ننزل الأدباء والكتّاب منزلة لائقة في حياتهم وموتهم.. وأن من حقّنا أن نحلم معاً في مستقبل يأخذ فيه الكتاب العربي حقه في التداول والانتشار.. أليس من المؤسف حقا أن نترجم بعض أعمال الكتاب والأدباء العرب إلى لغات أجنبية بأضعاف أضعاف أعدادها المطبوعة بلغتها الأم..

الالتزام في "ديوان الدكتور رجا سمرين"

بقلم: منير الزواوي

كتب منير الزواوي في مجلة الرسالة (سياسية أسبوعية جامعة)، في عددها (1140)، السنة 25، صفحة (63/62)- الأحد 1985/5/26، وتحت عنوان الالتزام في ديوان الدكتور رجا سمرين كتب يقول:

أصدر مؤخراً الدكتور رجا سمرين ديوانه الثاني (ديوان الدكتور رجا سمرين) في 228 صفحة، وقد تم طبع الديوان في الكويت سنة 1985، وكان الدكتور رجا سمرين الذي له مؤلفات عديدة في تاريخ عصور الأدب العربي قد نشر أول ديوان له سنة 1960 بعمّان بعنوان (الضائعون)، غير أنه آثر هذه المرة أن يترك ديوانه بلا عنوان مكتفياً إضافته إلى نفسه.

قسّم الدكتور الشاعر ديوانه إلى ثلاث مجموعات:

- المجموعة الأولى وتضم ثماني وأربعين قصيدة وقد اختار لها الشاعر عنوان (وتبقى الفوارس قرب الجياد)، وسنتعرض للمدلولات التي يوحي بها هذا العنوان.
- المجموعة الثانية وتحمل عنوان (شذرات) وهي عبارة عن مقطوعات شعرية قصيرة في أغراض مختلفة.
- أما المجموعة الثالثة فهي بعنوان (الضائعون) وبها اثنتان وثلاثون قصيدة والأرجح أن تكون هذه القصائد هي ذاتها التي نشرها الشاعر سنة 1960 خاصة وأنها تحمل نفس العنوان كما أنها مؤرخة في الفترة ما بين 1951 و 1960 وهي السنة التي طبع فيها الديوان الأول الضائعون..

وتجدر الإشارة إلى أن إخراج هذا الديوان كان جيداً إن من حيث الطباعة والورق، أو من حيث وجود مجموعة من اللوحات المعبرة للفنان محمد حجازي.

وبعد هذا التقديم المادي السريع سنحاول إبداء بعض الملاحظات والاستنتاجات التي توصلنا إليها بعد قراءة أولى للديوان..

إن أهم ما يلفت الانتباه في الديوان هو طغيان القصائد ذات النزعة القومية لدى الدكتور الشاعر، فإذا استثنينا بعض القصائد الإخوانية، وبعض القصائد الغزلية والخمرية فإن بقية القصائد تدور حول محور أساسي يتصل بالقضايا العربية الأمر الذي يدفعنا إلى القول أن الشاعر اتخذ من الشعر منبراً يعبر من خلاله عن هموم هذه الأمة وصراعها الطويل مع الاستعمار وهو ما اصطلح النقاد على تسميته بالالتزام وهو من وجهة نظرنا أرقى أنواع الالتزام إن صح التعبير.

أفليست الكلمة في نظر الشاعر كما يقول في قصيدة (الخوف من الكلمة) صفحة 97:

مُصَـــلَّتَةٌ علـــى الرقـــابِ مثلمـــا الحســـامْ

تـــــزعجُهُمْ يواقظـــــاً، تقلقهـــــم نيـــــامْ

إلى أن يقول:

كـــم ترعـــبُ القلـــوب هـــذه الحـــروف

فكـــــــــل حـــــــــرف مـــــــــارد

وكـــــــــل نقطـــــــــة شـــــــــبح

وكـــل نقطـــة مـــن الأشـــباح فيلـــق مخيـــف

يندفع الشاعر في جرأة إلى مخاطبة أولئك الذين ألقوا السلاح ورضخوا للحلول الاستسلامية مؤكداً على أن لا بديل عن البندقية لتحرير الأرض والثأر للعرض:

وقولـــوا لمـــن ظـــن أنـــا قضـــينا إلا إنمـــا النـــار تحـــت الرمـــاد

وأن الســـــلام مـــــع الغاصـــــبين ضـــــلال وكفـــــر بـــــرب العبـــــاد

وأن الصـــــــمود بوجـــــــه العـــــــداة كفيـــــــل بتحقيـــــــق كـــــــل المـــــــراد

وأن فلســـــــطين لـــــــن تســـــــترد بغيـــــــر الفـــــــداء بغيـــــــر الجهـــــــاد

ولـــــــيس بغيـــــــر انـــــــدحار العـــــــدو تقـــــــر العيـــــــون ويشـــــــفى الفـــــــؤاد

و لشد ما يؤلم الشاعر أن يرى أمته بين أيدي أعدائها فيقول في قصيدة غنائية مؤثرة بعنوان (شقي الجيوب):

شـــــقي الجيـــــوب وجرحـــــي الوجنـــــات

واســـــــقي ورود الخـــــــد بـــــــالعبرات

وتـــــــأوهي وتنهـــــــدي وتعثـــــــري

بخطـــــاك إذ تمشـــــين فـــــي الطرقـــــات

إلى أن يقول:

فهـــم الألـــى لـــم يبـــق فـــيهم ماجـــد

يجلـــو دجـــى الأحـــزان فـــي الغمـــرات

قـــد أدمنـــوا عـــيش الهـــوان وشـــاقهم

ذل الحيـــــــاة بمعبـــــــد الشـــــــهوات

ويدفعه هذا الواقع المخزي إلى أن يسخط على أمته وينقم عليها فيقول:

فاســـتمطري يـــا أخـــت فـــوق رؤوســـهم

حمـــم الجحـــيم وعاصـــف اللعنـــات

ويعمد الشاعر في قصيدة (يا أمة ضحكت) إلى أسلوب السخرية المرة حين يرى الاقتتال بين أبناء الشعب الواحد بينما العدو يمرح في الأرض السليبة يقول متحدثاً عما دار في طرابلس من اقتتال فلسطيني عربي:

بشـــــراكم يـــــا أيهـــــا العـــــرب عـــــاد الجليـــــل وحـــــرر النقـــــب

ومضـــــت فلـــــول الشـــــر هاربـــــة تبكـــــــي أمانيهـــــــا وتنتحـــــــب

وغـــــدت شـــــفاه القـــــدس باســـــمة وتكشـــــفت عـــــن غـــــزة النـــــوب

لـــــم يبـــــق مـــــن أعـــــدائكم أحـــــد إلا أبـــــــا عمـــــــار فـــــــاحتربوا

ولتتقـــــــذوا منـــــــه طرابلســـــــا حتـــــى يـــــزول الهـــــم والحـــــرب

يـــــا أمـــــة ضـــــحكت ومـــــا فتئـــــت مـــــن جهلهـــــا الأجيـــــال والحقـــــب

لـــــم يبـــــق فـــــيكم مـــــن عـــــروبتكم إلا لســـــــــــان مفصـــــــــــح ذرب

فلتقطعـــــوا هـــــذا اللســـــان فمـــــا يجـــــدي الصـــــياح وينفـــــع الصـــــخب

كما كان استشهاد ابن الشاعر في ساحة الشرف أثر بالغ في نفسه فرثاه بجملة من القصائد وبقدر ما يتألم الشاعر لفقدان ابن عزيز بقدر ما يفخر باستشهادة ويرى من خلاله الأمل الذي يقود إلى النصر:

يـــــا ولـــــدي مـــــا أروعـــــك

وأنـــــت تفـــــدي أربعـــــك....

... يـــــا ليتنـــــي كنـــــت معـــــك

كيمـــــا أشـــــم عطـــــر دمـــــك الزكـــــي

وهـــــو يخضـــــب التـــــراب اليعربـــــي

يعبـــد القـــدس نحـــو القـــدس والخليـــل

وغـــــزة والرملـــــة البيضـــــاء والجليـــــل

ورغم ما يسود قصائد الشاعر الوطنية من مسحة حزن عميق دفعت الشاعر أحياناً إلى اليأس والهروب من الواقع كما في قصيدة (حتى الثمالة) حيث يقول:

حتـــــى الثمالـــــة أيهـــــا الرجـــــل

مـــــا زالـــــت النيـــــران تشـــــتعل

تطفـــــيء لظاهـــــا إنهـــــا شـــــعل

مـــــن حرهـــــا الأجيـــــال تختـــــزل

فإن الشاعر لا يفقد الأمل في صحوة هذه الأمة ولعل عنوان المجموعة الأولى (وتبقى الفوارس قرب الجياد) يوحي بإيمان الشاعر بأن الفوارس لا بد أن تركب الجياد يوماً وتنطلق لتسحق الأعادي وتسترد الحق السليب.

ولا ينبغي أن يفوتنا التنويه بأن الشاعر مهتم بكل ما يدور في الوطن العربي من أحداث، فما أن اندلعت ثورة شعب الجزائر سنة 1953 حتى هب الشاعر مناصراً لها شاحذا همم الأبطال من أبناء شعب الجزائر العربي:

يـــا أيهـــا الشـــعب كـــافح لا تكـــل ولا يرعـــك ذا الظـــالم الطـــاغي ومدفعـــه

مـــن يغصـــب الحـــق حـــاذر أن تجادلـــه فلـــيس مـــن حجـــة كالســـيف تقنعـــه

آمـــن بحقـــك إن النصـــر مرتقـــب فأنـــت بـــالعزم والإيمـــان تصـــرعه

كما كان الشاعر مواكباً منذ البداية لمعاناة الشعب الفلسطيني الذي تشرد ليعيش تحت الخيام فيقول:

وصـــمة أنـــت فـــي جبـــين الـــدهور

يـــا خيامـــاً فـــي القفـــر مثـــل القبـــور

يـــا نشـــاز الأنغـــام يـــا ســـبة التـــا

ريـــخ والنـــاس فـــي جميـــع العصـــور

ويصف الشاعر ربيع اللاجيء وصفاً بليغاً فيقول:

ربيعـــــي حـــــين أرجـــــع للـــــديار

يتـــــوج هـــــامتي إكليـــــل غـــــار

إلى أن يقول:

فمهمـــا شـــمت مـــن حســـن بهـــيج

تقربـــــــــه عيـــــــــون الناظرينـــــــــا

وداعـــــــب ســـــــمعي لحـــــــن جميـــــــل

لـــــــه وقـــــــع يســـــــر الســـــــامعينا

فـــــإني ســـــوف أحيـــــا فـــــي خريـــــف

وأمكـــــــث بائســـــــاً نضـــــــواً حزينـــــــا

أصـــــارع كـــــل ظلـــــم فـــــي ثبـــــات

ولا أخشـــــــــى صـــــــــياط الظالمينـــــــــا

إلـــــى أن أبصـــــر الـــــوطن المفـــــدي

طليقـــــاً مـــــن يـــــد المســـــتعمرينا

ولعل خير ما يمكن أن نوجز به موقف الشاعر من القضية العربية وقضية فلسطين خاصة، والقضايا القومية عامة هو قوله:

مـــــن للعروبـــــة قاصـــــيها ودانيهـــــا

يمحـــــو أســـــاها وفـــــي العـــــزاء يكفيهـــــا

مـــــن للعروبـــــة ينفـــــي عـــــن محاجرهـــــا

نومـــــاً أضـــــر بمثريهـــــا وعافيهـــــا

فقد ظل الشاعر في كل قصائده سواء التي قالها في بداية حياته الشعرية في الخمسينات، أو التي قالها في الفترة الأخيرة؛ ظل مؤمناً بأن الحق لا يسترد بغير السلاح، كما أن مختلف الأحداث التي مرت بها أمته لم تزد إحساسه بالألم إلا عمقاً عبر مرور السنين...

وإذا أمضينا إلى بقية القصائد فإننا نلاحظ تأثراً في بداية حياة الدكتور الشعرية بخمريات أبي نواس كما هو الحال في قصيدة (انطلاق) حيث يقول:

فاصـــــرع همومـــــك بالمـــــدام فإنهـــــا

طـــــب النفـــــوس وبلســـــم الأرواح

أما في قصائده الغزلية فالشاعر متأثر بالمدرسة الرومانسية كما يبدو ذلك في قصيدة (ذكرى) حيث يقول:

هنـــا فـــي الـــروض معبـــد ذكريـــاتي وأوهـــــامي وأحلامـــــي الخـــــوالي

جلســـت مـــع الأصـــيل ومـــلء نفســـي خيـــــالات تهـــــوم فـــــي خيـــــالي

ولسنا نحب أن نتعرض إلى قصائد الشاعر الإخوانية لأننا نعتقد أنها أقرب إلى النظم الذي يعمد إليه الشعراء في مناسبات معلومة.

وخلاصة القول أنه لا يسعنا في هذا المجال الإحاطة بكل النواحي المتصلة بهذا الديوان، فالأمر يحتاج إلى إلى دراسة أعمق وأشمل، غير أننا نأمل أن نكون بهذا التقديم السريع قد فتحنا الباب للنقاد والقراء كي يوفوا الديوان حقه.

قصيدة في ميزان النقد

بقلم: الدكتور عز الدين الجردلي

هذا البحث بقلم الدكتور عز الدين الجردلي، وقد نُشرت في جريدة الأنباء الصادرة بالكويت، بتاريخ 1983/3/4.

لقد بكى الشاعر الدكتور رجا سمرين وأبكى حين ألقى قصيدته (صلوات في معبد الحزن)–محمد يا ولدي– في الأمسية الشعرية التي أقامها معهد التربية للمعلمين ونشرتها جريدة الوطن بعد ذلك، والقصيدة في إطارها العام بما تحويه من مشاعر ودوافع ومعاناة تستحق أن تكون محراباً لنوع فريد من الصلاة تختلط فيه العناصر الذاتية للتجربة الشعرية بالمعاني الإنسانية العامة وقضايا الحياة.. أو قل: أن الشاعر قد نجح في إخراج عواطفه الخاصة وإحساسه لفقد ابنه الذي استشهد في حرب لبنان الأخيرة إخراجاً موضوعياً لا يخلو من عنصر الصراع النفسي الموحي الذي يحس به ويتفاعل معه كل من اغرورقت عيناه بدمعة مشاركة من الذين استمعوا أو قرأوا القصيدة كاف لجعل القصيدة واحدة من التجارب الشعرية الناجحة رغم ما قد يكون في عناصر التجربة وجزئياتها في الشكل والمضمون والأداء الفني المباشر من تفاصيل قد تختلف حولها آراء التقويم حسب هذا المذهب النقدي أو ذاك في مفهوم الشعر وخصائصه.

ونستطيع –من الناحية الشكلية– توزيع أبيات القصيدة إلى سبعة مقاطع أخذ واحد منها شكل الشعر العمودي، أما من الناحية الفنية فإن كل مقطع منها يثير شعوراً واحداً أحياناً، ومشاعر مختلطة قد لا يسهل الفصل بينها أحياناً أخرى، مع ملاحظة أن الشعور أو المشاعر قد تتكرر بذاتها في أكثر من مقطع. ولكن المقاطع في مجموعها تثير في النهاية شعوراً واحداً هو شعور الحزن المتعالي فوق المأساة، المتجه إلى رصد كثير من مظاهر أحوالنا الراهنة المسجل لمجموعة من السلبيات القاتلة في توجهاتنا، الدافع إلى عمل أكثر جدية، والأمل الأخير في تلمس بعض النتائج الإيجابية لهذه الدفقة

من هذا النوع من الحزن، وذلك يتيح للقصيدة قدراً من الوحدة العضوية على غرار ما نجد عند الرمزيين مع الفارق طبعاً في الوسائل اللغوية وطرق الأداء الفني.

وننظر في المقطع الأول من القصيدة مثلاً، فنجده يطالعنا بالشعور الذي يعتري كل من يؤبن شهيداً بطلاً قدم روحه عن اقتناع ورضى قرباناً للمبادىء والإيمان وحب الوطن، لإنه رفض مع قلائل مثله ما لم يرفضه الكثيرون من ذلة، ورضوا به من خسر وخذلان.. وهو شعور مزيج من الذاتية الخاصة والموضوعية العامة:

محمد يا ولدي

يا لسعة النار التي يشوي لظاها كبدي

يا صرخة الحق الذي جرح صمت الأبد

يا دفقة النور التي شعت بدرب السؤدد

ماذا أقول حين أرثيك؟ وماذا في يدي؟

إنا لفي خسر وخذلان وقهر سرمدي

لم نرفض الذلة، لم ننهض لدرء المعتدي

وأنت والصفوة من إخوانك الثوار، ملح هذا الزمن الردي

وقد يكون هذا الشعور المنبىء عن اقتناع الشاعر بدوافع ولده للاستشهاد من وسائله للتعزي الذاتي ومصدر قوته في تحمل (لسعة النار التي يشوي لظاها كبده) وهو ذات الشعور الذي سوف نراه في مقاطع أخرى وفي محصلة المقاطع جميعها، والذي عرفناه بشعور الحزن المتعالي فوق المأساة الخاصة في الفقد. ومن هذا المنطلق، راح الشاعر في مقطع آخر يثير شعور التمجيد لهذا العمل من أعمال البطولة النادرة التي تستهين بكل شيء في حياة صاحبها الدنيوي إلا بتقديم هذه الحياة ذاتها ثمناً لمحاولة تقويم المسار وإعطاء الدروس في كيف يكون العمل المخلص من أجل المبدأ دون الاكتفاء بترديد الشعارات ورفع اللافتات من وراء التقوقع والتقاعس، وهنا ينفرد الشعور أو يستغل

استغلالاً واضحاً ليشمل ما هو أكبر من الحزن الذاتي المتزاوج مع الشعور بالتشخيص العام للمأساة، ذلك أنه يلمس بعض أسبابها:

لبيتم النداء

لقنتم العدو أصعب الدروس

بذلتم النفوس

أحسنتم البلاء

حطمتم أسطورة الجيش الذي لا يعرف الهزيمة

أثبتم أن الذي يعوزنا ليس سوى العزيمة

والقابعون في القصور في مخادع الحريم

قد فقدوا الإحساس، جف منهم الأديم

وحتى يكتمل هذا الشعور ويستغرق شيئاً من المجال الإنساني العام، راح المقطع التالي يذكر بماضي الأمة وأمجادها أشخاصاً مجاهدين ومواقع خالدة في التاريخ العربي والإسلامي، كتب بصدق النية وإخلاص العزم على ذلك يكون معلماً من معالم الطريق الصحيح الذي يتمناه الشاعر، وكأنه يحيل هذه المظاهر إلى نوع من الرمز الموحي:

ما فيهم معتصم ولا صلاح الدين

لم يسمعوا عن عين جالوت ولا حطين

يناشدون ربهم في بيته الأبيض

أن يخلص الأمة من براثن الأعداء

قد أجلسوا الجيوش في مقاعد النظارة

لم يرسلوا دبابة، لم يطلقوا طيارة

ثم يعمق الشاعر الإحساس بالرمز في نفس المقطع بعدم الاكتفاء بالإشارة إليه على سبيل التشبيه، بل إنه يجعل العنصر الرمزي في سياقه الجديد مرتبكاً تماماً بسياقه الأصلي القديم:

فروا إلى الجبال من جيوش أبرهة

ورفعوا الأكف للسماء قائلين:

"للبيت ربه الذي يحميه من أبرهة اللعين"

لكنهم ليسوا بطهر عبدالمطلب

فانكشفت أستارهم وزالت الحجب

ومكن الإله أبرهة

من هدم بيته الجديد

من هدم كعبة العناد والصمود

لكن الشاعر يرتد بعد ذلك إلى ذاته، ويضغط شعور الحزن والتعزي على نفسه، ويروح في المقطع التالي يكشف عن الأثر الخاص لفقده ابنه ويبين مظاهر هذا الأثر الماثلة في حياته الخاصة مما يدعو إلى الحسرة والمعاناة اليومية، لكن ذلك كله يأتي في نطاق الإيمان بالله وقضائه:

محمد يا ولدي

ماذا أقول حين أرثيك؟ وماذا في يدي؟

يخذلني شعري

تفر من يدي القوافي

أصير في مهب ريح الحزن ريشة تلهو بها السوافي

أشياؤك التي خلفتها في المنزل الحزين

تثير في قلوبنا عواصف الحنين

يدفعنا إلى شفا الجنون

يجعلنا نستعذب المنون

فنرفع الأكف قائلين:

"إنا إلى الله لراجعون"

"إنا إلى الله لراجعون"

ثم تختلط المشاعر في المقطع التالي بين الحزن والتأبين والتمجيد والتجسيد العام للمأساة، وهي مشاعر نراها مكررة قادمة من المقاطع السابقة:

محمد يا ولدي

يا نهر حزن دائم المد

ينضح بالعطر وبالند

أنت شهيد الصمت والتآمر

أنت قتيل الخلف والتناحر

ضحية الصمود والتصدي

ضحية الخنوع والتردي

لكن الشاعر لا يستطيع الانفلات من الحزن الذاتي، حزن تشوبه لوعة التشوق للقيا ولده الذي طال غيابه، ففقد مع فقده معنى الوجود وأحس بقفر في الحياة وتمنى لو أنه حضر تشييعه الأخير. وهنا يعتذر عما يعرفه عنه ابنه من اتزان وثبات لأن فقده ليس بالأمر الهين، فهو العذاب بعينه، كما أن حالة الذل والهوان وموات الإحساس ما تزال كما هي رغم الأرواح الطاهرة التي دفعها أصحابها أملاً في التغيير حتى أصبح الكل يفضل الموت على هذه الحياة، وكل ذلك يأتي في مقطع من الشعر العمودي – باستثناء مطلعه– رأى الشاعر نفسه أكثر قدرة على تضمينه هذا الشعور، خاصة مع تلك القافية المطلقة:

محمد يا ولدي

يا دوحة الحزن التي قد غرست في كبدي

جن شوقي إلى لقاك فعد لي

يا حبيبي فقد أطلت الغيابا

لم يعد للوجود عندي معنى

صار روض الحياة قفراً يبابا

ليتني كنت من أهالوا عليه

يوم واروك يا حبيبي الترابا

لا تلمني إذا أضعت اتزاني

لا تلمني إذا فقدت الصوابا

لا تلمني فإن فقدك نار

تورث الهم والأسى والعذابا

قم تأمل ما نحن فيه من الذل

تجدنا للموت غرثى سغابا

مات فينا الإحساس لم يبق فينا

من يرى في الهوان أمرا معابا

وليس أروع من دفقة الشعور عند الشاعر الأب من تلك الترنيمة الرائعة التي أحس بقيمتها لإتمام صلاته في محراب الحزن وذلك في سطور مرتلة كنا نتمنى لو طال نفس الشاعر فيها لأنها تجعل هذا الحزن مرتفعاً سامياً ينم في سطور تعقب هذه الترنيمة – بشكل أو بآخر– عن فرح بالشهادة في سبيل الحق يغبط عليها صاحبها ويتمنى نيلها، أو على الأقل رؤية الشهيد وهو يسقط كي يطبع على جبينه وعينيه قبلة فخر مؤمنة، أو يشم رائحة هذا الدم الندي الذي خضب تراب الأرض العربية ليغسلها بطهره ويطهر بريحه أجواء التخاذل والخنوع والضعف لتعود للأمجاد سيرتها ويسقط العار عن الأمة في حاضرها:

يا ولدي ما أروعك

وأنت تفدي أربعك

يا ليتني كنت معك

وأنت تلقي مصرعك

كيما أقبل الجبين قبلة أو قبلتين

كي ألثم العينين مرة أو مرتين

كيما أشم عطر دمك الزكي

وهو يخضب التراب اليعربي

يعبد الطريق نحو القدس والخليل

وغزة والرملة البيضاء والجليل

يمحو سطور العار من تاريخنا الحديث

يعيد ماكان لنا وكان

في سالف الأزمان

من عزة ورفعة بين بني الإنسان

إنها قمة الحزن المتسامي، الأمل الذي تنتهي به القصيدة نهاية طبيعية وكأنه خاتم التوقيع الذي يؤكد ما قلناه عن الشعور العام الذي تثيره مجموعة المشاعر المختلفة والمختلطة والمتكررة في سائر مقاطع القصيدة...

هذا النوع من الحزن لا يقدر عليه إلا الرجال البررة الذين يرضون عما يقدمون في سبيل الحق ولو كان من فلذات أكبادهم، لا يعرفون اليأس في حزنهم – أو قل– لا يحزنون عن ضعف أو اهتزاز في العقيدة، ولا عن تشنج أو ارتجاف تحت هول المصيبة، بل يشمخون وهم يبكون أعز من عندهم متيقنين بأن من يبكون قد أسهم بما يجب من أجل البعث والإيقاظ، ومن أجل قرع الأسماء حتى نَعي وندرك ما نحن فيه من ذل وهوان، وحتى نقدر قيمة ما يقدم من تضحيات غالية على أمل التغيير انطلاقاً من مبادىء العزم والإخلاص والثبات.

إن الشاعر في هذه القصيدة يخوض بنا تجربة فنية غنية بثرائها الشعوري المتدفق خصوصاً وعموماً، وغنية بإيحاءاتها المعبرة في كل لمحة وكل إشارة. إنها صلاة في محراب الشعر من أجل بطل جعل صلاته الشهادة على أرض الوطن، لقد صقلت هذه التجربة بكل ما ذخرت به من مشاعر موحية وما تخللها من أجواء الحزن، الأمل، والتعزي الصابر، والغضب الواعي، والصبر الرجولي، والغناء

الشجي الأسى، والرضا الآمن المطمئن – نقول أن هذه التجربة الثرية قد صقلت التوجه الفني لدى الشاعر، حتى لنكاد نزعم أنها أرقى ما رأينا لديه من تجارب سابقة كان النفس الشعري – أو بالأصح– كان الإيحاء الشعوري فيها أقل وضوحاً من حيث ما يتطلبه الأداء الفني من عناصر الصراع النفسي والتصوير المتوسل بصدق المشاعر وتخييلها.. تلك العناصر التي تحيي التجربة عادة وتحيلها إلى تعبير موضوعي أكثر التصاقاً بالمشاعر الإنسانية العامة المرتبطة بقضايا الحياة وهمومها بعيداً عن التقريرية والجمل الخبرية المباشرة التي تزيف مفهوم الشعر وتحيله إلى نوع من النظم ليس إلا.

التفوق الموضوعي في التجربة الشعرية

قراءة نقدية في رثاء رجا سمرين لولده الشهيد...

بقلم: الدكتور عز الدين الجردلي

(الحلقة الأولى)

هذه القراءة النقدية بقلم الدكتور عز الدين الجردلي، وقد نُشرت الحلقة الأولى منها في مجلة مرآة الأمة الصادرة بالكويت، العدد 717، بتاريخ 1985/11/6.

ما زال استشهاد ابن الشاعر الدكتور رجا سمرين يشكل موضوعاً للتجربة الشعرية عنده. وقد تعرضنا فيما سبق لقصيدته الأولى التي نشرها بعد أيام من حادث الاستشهاد تحت عنوان (صلوات في معبد الحزن)، ثم جاءت بديوان الشاعر الذي طبع بعدها تحت عنوان (محمد يا ولدي)، وقد قلنا في تلك القصيدة من مقال بعنوان (قصيدة في ميزان النقد) بجريدة الأنباء بتاريخ 1983/3/4: (إن الشاعر في هذه القصيدة يخوض بنا تجربة فنية غنية بثرائها الشعوري المتدفق خصوصاً وعموماً، وغنية بإيحاءاتها المعبرة في كل لمحة وكل إشارة، إنها صلاة في محراب الشعر من أجل بطل جعل صلاته الشهادة على أرض الوطن. لقد صقلت هذه التجربة بكل ما زخرت به من مشاعر موحية وما تخللها من أجواء الحزن الآمل، والتعزي الصابر، والغضب الواعي، والصبر الرجولي، والغناء الشجي الآسي، والرضا الآمن المطمئن– نقول إن هذه التجربة الثرية قد صقلت التوجه الفني لدى الشاعر حتى لنكاد نزعم أنها أرقى ما رأينا لديه من تجارب سابقة كان النفس الشعوري فيها أقل وضوحاً من حيث ما يتطلبه الأداء الفني من عناصر الصراع النفسي والتصوير المتوسل بصدق المشاعر وتخييلها.. تلك العناصر التي تحيي التجربة عادة وتحيلها إلى تعبير موضوعي أكثر التصاقاً بالمشاعر الإنسانية العامة المرتبطة بقضايا الحياة وهمومها بعيداً عن التقريرية والجمل الخبرية المباشرة التي تزيف مفهوم الشعر وتحيله إلى نوع من النظم ليس إلا.)

وسف نتعرض اليوم لقصيدتين أخريين في الموضوع نفسه إحداهما في الديوان بعنوان (محمد يا حبيب الروح) قيلت في الذكرى الثانية للفقيد، والأخرى نشرها الشاعر بجريدة الوطن هذه الأيام في الذكرى الثالثة بعنوان (تقول أم نزار)، ولسوف نقول على التو بأننا ما زلنا نتمسك برأينا السابق في القصيدة الأولى من حيث هي تجربة فنية أكثر إيحاء وثراء في الشعور وفيما يتطلبه الأداء الفني من عناصر الصراع النفسي والتصوير المتوسل بصدق المشاعر وتخييلها.. إلخ.

إن أي موضوع للتجربة الشعرية الناجحة غالباً ما يكون وسيلة الشاعر التي يطل من خلالها على كثير من المجالات الإنسانية والاجتماعية التي تهم المتلقي وتشعره بأن قضاياه وإحساساته ومعاناته موضع تقدير وموضوع حديث بينه وبين الشاعر فيشده ويستحوذ على متابعته..

وإذا كان الحزن في قصيدة (محمد يا حبيب الروح) لم يبلغ مبلغه في القصيدة الأولى من حيث التدفق والإيحاء العشوري فإن الشاعر ينجح في جعل القصيدة من الناحية الموضوعية ذات بعدين أساسيين: البعد الذاتي الخاص، والبعد الوطني العام.

أما البعد الأول: فهو عبارة عن خمسة عشر بيتاً في مقطعين متساويين تقريباً. والذي يجمع بين المقطعين في بعد واحد هو المناجاة الحزينة للفقيد، لكن الحزن في المقطع الأول يتخذ شكلاً وصفياً مباشراً يبين الأثر الذي تركه الفقيد في حياة أبيه الشاعر ونفسيته، ويعتمد في معظم الأحيان على الأسلوب الخبري الذي يصف فداحة المصاب وعدم القدرة على الصبر وتحمل الرحيل، يقول:

محمد يا حبيب الروح يا ولدي ... أفول نجمك فت اليوم في عضدي
رحلت فارتحلت سعادتنا ... وعشعش الحزن في الأعماق للأبد
مصيبتي فيك بركان يدمر ما ... في غور نفسي من صبر ومن جلد
يا مشعل النار في روحي مؤججة ... وغارس الحزن في قلبي وفي كبدي

ورغم تكرار الشاعر لوصف صورة الحزن الذي (عشعش في الأعماق للأبد) في البيت الثاني، والذي (غرسه الفقيد في قلب الشاعر وكبده) في البيت الرابع، مما جعل السعادة ترحل برحيله، فإن الحزن يأتي أبعد أثراً وأشد تأثيراً في عتاب الشاعر لولده في البيت الخامس والسادس على هذا الرحيل

السريع المفاجىء الذي لم يتمهل فيه لتوديع الأهل والأحباب رغم العهد به في المحافظة على صلة الرحم:

هــلاّ تمهلــت مــن قبــل الفــراق لكــي تــودع الأهــل والأحبــاب يــا ولــدي
فمـــا عهـــدتك إلا واصـــلاً رحمـــاً ولا عرفتـــك إلا آخـــذاً بيـــدي

لقد تملك الحزن الشاعر في هذين البيتين تملكاً استغرق مشاعره ووجدانه مما جعله يوجه هذا العتاب مع علمه الواعي بعدم إمكانية حدوث ما يطلب بالنظر لظروف استشهاد ولده، لكن الحزن الخفي المستحكم جعل اللاوعي هو المسيطر على الموقف الشعري ومن ثم جاء مؤثراً يشد المشاعر بدرجة أشد من الوصف المباشر للحزن في الأبيات الأربعة الأولى التي أراها تلتحم موضوعياً مع البيت السابع الذي يختتم به الشاعر هذا المقطع:

طعــم الحيــاة غــدا صــابا فلــيس بهــا مــا يحفــز الــنفس أن تحيــا ليــوم غــد

فبعد أن سما الموقف الشعري إلى منطقة اللاوعي الشعوري الموحي في بيتي العتاب، نرى هذا البيت الأخير يفرض انتسابه إلى دائرة الوصف المباشر في الأبيات الأربعة موضوعياً وأسلوبياً على السواء.

ويواصل الشاعر هذه المناجاة الحزينة في المقطع الثاني الذي نراه يبدأ بداية طبيعية تتصل بسبب بنفس المعاني في تلك الأبيات الأربعة وخصوصا الرابع منها (يا مشعل النار في روحي مؤججة)، تقول هذه البداية للمقطع الثاني:

أقــول والنــار تشــوي خــافقي كمــدا يــا ليــت أنــي لــم أولــد ولــم ألــد

لكن الذي نريد تمييزه في هذه المناجاة ذلك الحزن اللامباشر الذي يعتمد أسلوب التمني، ومعروف أن المعاني الظاهرة في هذا الأسلوب لا تكون مقصودة لذاتها، بل المقصود هو ما وراء التمني من أسى وحسرة تتعمق المشاعر لإحساسها بعدم إمكانية وقوع المعنى الظاهر المطلوب فتتوسل بهذا الأسلوب لتوحي بما تريد، يقول:

أقــول والنــار تشــوي خــافقي كمــدا يــا ليــت أنــي لــم أولــد ولــم ألــد
أوليــت أن دمــاء منــك قــد بــذلت قــد حــررت ربــوة فــي القــدس أو صــفد
أوليــت أنــي وقــد غالتــك غائلــة قد كنت نسيا مسجّىً في الثرى جسدي
أوليــت أنــي أســير اليــوم فــي عجــل نحــو الفنــاء مجــداً غيــر متئــد

أما الأبيات الثلاثة الباقية من هذا المقطع فتكاد تكون تعليلاً منطقياً لهذه الثمنيات الحزينة، بأسلوب متناسق مع السمة الوصفية المباشرة التي تغلب على معظم الأبيات في هذين المقطعين، يقول:

علّــي ألاقيــك فــي ظــل الإلــه علــى أرض النعــيم قريــراً غيــر مفتــأد
إذْ مــا انتفــاعي بعــيش لــيس يرفــدني فــي دربــه الجــون مــن هــاد ولا ســند
ومــا انتفــاعي بجــاه أو بمــا جمعــت يــدي مــن المــال أو حققــت مــن رغــد

هكذا يعبر الشاعر في هذين المقطعين عن مشاعره الذاتية الخاصة في الحزن باختلاف الشكل التعبيري الذي يعتمد عليه، وهو ما اتفقنا على اعتباره البعد الموضوعي الأول في هذه القصيدة.

أما البعد الثاني: فإن الشاعر يستغل مناجاته الذاتية لولده في توفير نوع من الحس الوطني العام الذي يطل منه في المقطع الثالث من القصيدة على أحوال الأمة العربية فيصف ما حلّ بها من خلف وتفرق في الرأي والجهد أمام الرزايا، وما يحتاج إليه من إيمان وعزيمة ومن تمسك بمنهج الله في رفض الدنايا وأنواع الذل حتى يعود لها وزنها بين الأمم ولا يكون خضوعها إلا للواحد الصمد، يقول:

أطــل مــن شــرفة الفــردوس يــا ولــدي تلــق الأعاريــب فــي خلــف وفــي بــدد
لا يجمعــون علــى رأي يكــون بــه دفــع الرزايــا فهــم دومــاً علــى فنــد
لــديهم كــل شــيء ينصــرون بــه إلا العزيمــة والإيمــان يــا ولــدي
لــم ينصــروا الله فانحطــت عــزائمهم ولــم يصــيخوا لصــوت العقــل والرشــد
ليسوا من الحس في شيء وقد سكنوا مثــل الأذلــين غيــر الحــي والوتــد
عفــاتهم فــي الــدنايا مثــل ســادتهم "ولا أحاشــي مــن الأقــوام مــن أحــد"
قــد أدمنــوا الــذل حتــى لــم يعــد لهــم فــي الكــون وزن وإن كــانوا ذوي عــدد

ولا شك في أن خروج الشاعر من البعد الذاتي الخاص الذي سيطر فيه الحزن على مشاعره كما رأينا، إلى هذا البعد الوطني العام جعل هجمته على وصف أحوال الأمة العربية هجمة عنيفة تتضح بالمرارة والغضب، وتتبع في نفس الوقت من حرصه على أن يكون الحال غير الحال فتنهض الأمة من كبوتها وتصحو من غفلتها وتعتمد الأسلوب الصحيح في العمل وهو الوحدة والاتفاق في مواجهة الأعداء والتمسك بقوة العزيمة والإيمان بالله والانتصار له حتى يمنحنا النصر. ويتضح هذا الحرص في الأبيات الأخيرة من هذا المقطع حيث يتمنى الشاعر ما يريده لأمته من استعداد دائم لرد كيد المعتدين:

فليت لي دونهم قوماً ذوي همم لا يخضعون لغير الواحد الصمد
إن صاح في الروع منهم صائح وثبوا للحرب كالجن والعقبان والأسد
وإن تجرأ شعب أن يكيد لهم كانوا له والردى المحتوم في رصد

ولقد نجح الشاعر – في رأينا – في الانطلاق من ذاتيته إلى تصوير حسّه الوطني الذي هو حس كل عربي غيور على أمته، وإذا كان عنيفاً في هجومه فما ذلك إلا لحرصه على تغير الحال كما قلنا، ولأن حالة التمزق والضياع التي تعيشها الأمة العربية اليوم هي سبب كل المشاكل التي يلاقيها كل عربي يعيش على أرض العروبة بكل المعاناة والقلق والاضطراب في المجال النفسي والحياتي على السواء.

ولا يفوتنا ونحن نغادر هذه القصيدة القول بأن ألفاظ الشاعر سهلة قريبة المأخذ وذات معان واضحة ومباشرة، لكنها تدل في الوقت نفسه على اطلاع الشاعر وثقافته التي يستعير منها بعض معجمه اللغوي كما نرى في (واصلاً رحماً، لم أولد ولم ألد، كنت نسياً، فهم دوماً على فند، لم ينصروا الله، الواحد الصمد، غدا صاباً، غير مفتأد، غير الحي والوتد)، وكما في قوله:

عفاتهم في الدنايا مثل سادتهم "ولا أحاشي من الأقوام من أحد"

إذا يستعير الشطر الثاني من قول النابغة الذبياني في النعمان بن المنذر:

ولا أرى فـــاعلاً فـــي النـــاس يشـــبهه "ولا أحاشـــي مـــن الأقـــوام مـــن أحـــد"

والفرق أن بيت النابغة يأتي في معرض المدح وقد طوع الشاعر الشطر الثاني منه كي يوافق معانيه في الذم.

التفوق الموضوعي في التجربة الشعرية

قراءة نقدية في رثاء رجا سمرين لولده الشهيد...

بقلم: الدكتور عز الدين الجردلي

(الحلقة الثانية)

هذه القراءة النقدية بقلم الدكتور عز الدين الجردلي، وقد نُشرت في مجلة مرآة الأمة الصادرة بالكويت، العدد 718، بتاريخ 1985/11/13.

نشرنا في الأسبوع الماضي رأي الكاتب في قصيدة الشاعر الدكتور رجا سمرين وتعرض الكاتب لسماتها عرضاً وتحليلاً ورؤية في التفوق الموضوعي للتجربة وفي هذه الحلقة يستكمل الكاتب رأيه.

ولقد قرأت قصيدة الشاعر الثالثة التي نشرها قبل أيام في الذكرى الثالثة لاستشهاد ولده كتجربة ممتدة لينبوع الحزن في قلبه، وعندما قرأت هذه القصيدة تبادر إلى ذهني بيت المتنبي الذي استهل به قصيدة رثاء فاتك الإخشيدي وهو قوله:

الحـــزن يقلـــق والتجمـــل يـــردع والـــدمع بينهمـــا عصـــي طيـــع

وليس اعتباطاً أن يقفز الذهن هذه القفزة لأن القصيدة في مجموعها تجربة حية يشكل الصراع بين قلق الحزن والتجمل في مواجهته البعد الموضوعي الأساسي فيها، وهو صراع يستغرق جوانب هذا البعد الموضوعي، ويتكىء على الشكل الحواري الذي يحكي الحديث بين بطلي التجربة: الشاعر وزوجته. أو بالأحرى، يحكي أحوال الشاعر بعد مرور هذا الوقت على استشهاد ابنه وهي أحوال يقلقها الحزن ويخرجها عن طورها ويغير من نسق حياتها، كما يحكي موقف الزوجة الأم، وهو موقف التجمل الذي يردع أو يحاول أن يردع، ولكن هذا الموقف يأتي وقد حمل بين دواعي الحزن ما يثير المشاعر ويعمق الأسس كأكثر مما تحاول هي تخفيفه عن زوجها.

وهذا الشكل الحواري قد أثرى التجربة لأنه ساعد على استغراق الشاعر فيها، ومن ثم جاءت ممثلة للحياة وبدت الأحاسيس التي تثيرها صادقة. لقد استطاع الشاعر في هذه التجربة التعبير عما في نفسه من صراع، كما استطاع بحكاية موقف زوجته ومحاولتها التجمّل والردع بهذا الأسلوب الحواري أن يعمق التعبير عن هذا الصراع لأن موقفها الشعوري يكشف ألوان الصراع في نفسها ما هو أشد مما كشف عنه الشاعر نفسه، وبهذا نستطيع القول أيضاً أن الشاعر ينفذ في تجربته في المجال الذاتي الخاص إلى معالجة موقف من المواقف الإنسانية والاجتماعية العامة التي قد تنطبق على غير الشاعر وزوجته ممن يتعرضون لأحداث مشابهة، أو حتى يواجهون حالات فيها نوع من أنواع الفراق. ويشتمل هذا الشكل الحواري لبناء القصيدة أربعة مقاطع في أربعة وثلاثين بيتاً من الشعر العمودي، يقع الأول منها في تسعة عشر بيتاً، وهو أطولها وفيه يحكي الشاعر عن زوجته موقفها من حاله ومحاولتها تصبيره فتطالبه – وقلبها يشتعل أسى– بالكف عن البكاء الذي لم ينقطع منذ وقوع الحدث، وهي تستعين في ذلك بتذكيره بصلابته المعهودة أمام الحوادث والمصائب وبحكمته في تقليب الأمور حتى أصبح ما هو فيه اليوم خبالاً يثير عجب الناس، وكيف يغيب عن باله وهو ذو علم ومعرفة بحقائق الأمور أن الدمع لا يطفىء نيران الحزن ولا يعيد الأحباب الراحلين:

تقـــول أم نـــزار والأســـى شـــعل والنـــار فـــي قلبهـــا المكلـــوم تشـــتعل
مـــا بـــال عينيـــك لا ترقـــا مـــدامعها؟ كأنهـــا حـــين تهمـــي عـــارض هطـــل
إنـــي عهـــدتك طـــوداً لا تزعزعـــه حـــوادث الـــدهر والأرزاء والعلـــل
وقـــد خبرتـــك ذا علـــم ومعرفـــة تقلـب الأمـر لـم يعصـف بـك الزلـل
تعجـب النـاس ممـا أنـت فاعلـه أمـا كفـاك خبـالاً أيهـا الرجـل
هـل يطفـىء الـدمع نيرانـاً مسـعرة أم هـل يعيـد الأحبـاء الألـى رحلـو؟!

ثم تبدأ في تفصيل حال زوجها نتيجة لحزنه الذي يبدو –لتواصله– وكأن الشاعر يجتره اجتراراً، أو كأن الحزن بردة يلتف بها التفافاً، فقد هجر الصحب وانزوى في بيته وحيداً ليس معه إلا الوجل الذي يرعى روحه ويقض مضجعه:

مـا لـي أراك هجـرت الصـحب منزويـاً فـي عقـر بيتـك يرعـى روحـك الوجـل؟

تجتـــر حزنـــك حتـــى لا تكـــاد تـــرى إلا وأنـــت ببـــرد الحـــزن مشـــتمل
وتقطـــع الليـــل مهمومـــاً ومنكســـراً يشـوي فـؤادك مـن هـول الأسـى الوهـل
وتجـــرع اليـــأس صـــرفاً دونمـــا ملـــل بخمـــر حزنـــك مســـلوب الحجـــى ثمـــل
مـا عـدت تعـرف طعـم النـوم فـي دعـة عينـــاك دومـــاً بنـــار الســـهد تكتحـــل
إن الشـــقاوة أخـــت أنـــت توأمهـــا كـــأن نجمـــك مـــذ جئـــت الـــدنا زحـــل

بعد هذا التفصيل في وصف الزوجة لحال الشاعر وشقاوته التي يتجرع فيها اليأس صرفاً، تلجأ إلى نوع من الحكمة المعتمدة على بعض المفاهيم العامة المعروفة التي يلجأ إليها الناس عادة وهم يسرون عن بعضهم ويحاولون تخفيف الأحزان والتصدي لحوادث الفقد بالذات.

وهذه المفاهيم الحكيمة تتوسل عند الزوجة بخمس أفكار: فكرة التصبر حين يعز الصبر حقيقة، وفكرة يقررها القرآن الكريم وهي أن بعد العسر يسرا، وفكرة تغير أحوال الدنيا وأنها لا تدوم على حال، وفكرة اللجوء إلى الصلاة والتسبيح وقراءة القرآن، وفكرة الحكم الإلهي الثابت بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ونلاحظ المسحة الإيمانية في معظم هذه الأفكار واللجوء إلى وسائل حث الدين الإسلامي على التمسك بها والاعتماد عليها عند الكرب والشدائد. والشاعر في ذلك واضح التأثر بالقرآن الكريم في اللفظ والمعنى على السواء، تقول أم نزار:

إن عـــزك الصـــبر أو ســـدت طرائقـــه ففـــي التصـــبر والســـلوى لنـــا بـــدل
ولـــيس مـــن بعـــد عســـر غيـــر ميســـرة هـــي الـــدنى بـــين أبنـــاء الـــورى دول
ليســـت تقـــر علـــى حـــال موحـــدة ولا يـــدوم بهـــا غـــم ولا جـــذل
وفـــي الصـــلاة وفـــي التســـبيح تعزيـــة وفـــي الـــتلاوة عـــن هـــول الأســـى شـــغل
والله – جـــل – بـــأي الـــذكر بشـــرنا مـــا مـــات مـــن فـــي ســـبيل الله قـــد قتلـــوا

وأخيراً، تختم الزوجة هذا المقطع الذي حاولت فيه – وقلبها يشتعل بالنار– أن تردع الحزن وتتجمل هي وزوجها بالتصبر والتعالي على المأساة فتذكر والد الشهيد بحقيقة استشهاد ابنه الذي بذل دماءه في سبيل الله والوطن:

محمـد لـم يمـت مـن أجـل غانيـة ولـم يقاتـل وفـي أعماقـه دخـل
لكنـه فـي سـبيل الله قـد بـذلت دمـاؤه كـي يعـود السـهل والجبـل

ثم يأتي الحوار سريعاً خفيفا فيبدأ برد الشاعر مبرراً لحزنه وبكائه الذي لن ينقطع ما عاش لأنه فقد الأمل والمرشد فضاع منه الصبر وضاقت به السبل فضل الطريق، يقول:

فقلـت رفقـاً بهـذا القلـب عـاذلتي لا تعـذليني فمـا أن ينفـع العـذل
فـي غـور نفسـي أحـزان مـدمرة وفـي فـؤادي جـرح لـيس ينـدمل
وسـوف أبكـي علـى الأحبـاب مـا قـدرت عينـي علـى الـدمع حتـى يـأتي الأجـل
قـد حطـم الـدهر آمـالي فـأوهنني مـا نفـع عـيش إذا لـم يسـعف الأمـل؟!
فقـدي لأشـجع أبنـائي وأفضـلهم أودى بصـبري فأمسـى مرشـدي الخبـل
وكيـف أحيـا بـلا رشـد ولا أمـل؟! وأيـن أمضـي وقـد ضـاقت بـي الحيـل؟!

ونلاحظ أن اليأس يبلغ من الشاعر مبلغه في الأبيات الثلاثة الأخيرة، مما يثير الزوجة المؤمنة فتعيد محاولتها لإرجاعه إلى رشده، وهي في هذه المحاولة تدعوه إلى اللجوء إلى الله مباشرة بعد أن كانت تدعوه إلى التمسك بأوامره واتباع سبيله وخصوصاً بعض الأفكار التي تحدثنا عنها سابقاً، وهذا يناسب خوفها من تمكن اليأس في قلبه:

قالـت إلـى الله لا تقصـد سـواه ولا تفـزع لغيـر حمـاه أيهـا الرجـل
أتطـرقن سـوى بـاب الإلـه فمـن يطـرق سـواه فقـد ضـلت بـه السـبل
لـئن قضـى نجلنـا فـالله أكرمـه بـأن يشـفع إمّـا تشـفع الرسـل
وحسـبنا أنـه أودى بمعركـة وأنـه كـان نعـم الفـارس البطـل
وأنـه قـد قضـى مـن أجـل عزتنـا ومـا تصـباه أمـر تافـه وشـل

وأخيراً، تنجح محاولات الزوجة فنرى الشاعر يثني على طهر زوجته وإيمانها ويقرر أن ذلك جعلها منذ البداية خير رفيق في مشوار الحياة، ثم يدعو برعاية الله لها، ويعترف بأن موقفها هو الموقف الحق لأن الله في كل أمر حكمة وقضاؤه هو القضاء.

وهنا يؤوب إلى الله مستغفراً مما تسرب إلى نفسه من يأس وجزع هي في حقيقتها وساوس نفس تتردى بها في مواطن الزلل فتوردها موارد الأحكام التي تجانب الصواب؛ ويضم إلى استغفاره لله هذه اللجاجة النفسية استغفاراً من قبول الظلم والخنوع ومن القول إذا لم يدعمه العمل، يقول:

يـا ربـة الطهـر، يـا خيـر الرفـاق علـى ... درب الحيـــاة... رعـــاك الواحـــد الأزل
قـد قلـت حقـاً، فمـا مـن كربـة نزلـت ... إلا ولله فيهـــــا حكمـــــة جلـــــل
اسـتغفر الله مـن يأســي ومـن جزعـي ... ومـــن وســاوس نفــس حكمهــا خطــل
ومـــن ســكوت علـــى ضـــيتم ومظلمـــة ... ومـــن خنـــوع ومـــن قـــول ولا عمـــل

ولا شك في أن الحوار السريع الخفيف الذي تلا المقطع الأول يتناسب موضوعياً مع هذه النتيجة في المقطع الأخير. فالأوبة كانت سريعة، كما أنها اعتمدت على نفس الأسس التي بنت عليها الزوجة محاولتها في تعبير زوجها، وما استغفر منه الشاعر هو ذاته الذي كان يبرر به حزنه وبكاءه ويأسه.

أما أسلوب الشاعر في هذه القصيدة فإنه يتراوح بين النفس الشعري التصويري وبين التناول النظمي التقديري المعتمد على الوعي والمنطق والتعليل، لكنه في الحالتين أسلوب واضح مؤثر يحرك المشاعر ويسرع بالمعنى إلى القلب والذهن معاً، فيستقر على ما أراده الشاعر وعلى ما يتيحه من إيحاءات وعند البحث عن مقومات الأسلوب التصويري في القصيدة نجد الصور فيها على نوعين: صور شكلية حسية تقوم على الوصف المباشر المتوسل باستخدامات البلاغة وخصوصاً التشبيه، وصور إيحائية شعورية تقوم على التركيب الكلي الذي لا يكتفي بعقد المشابهة الحسية بين الأشياء بل يجعل هذه المشابهة توحي بالشعور المتحكم في نفسية الشاعر ولا وعيه أثناء تعبيره عن تجربته. ونمثل للنوع الأول بقول الشاعر:

تقـــول أم نـــزار والأســـى شـــعل ... والنـــار فـــي قلبهـــا المكلـــوم يشـــتعل
إنـــي عهـــدتك ذا طـــودا لا تزعزعـــه ... حـــوادث الـــدهر والأرزاء والعلـــل
تجتـــر حزنـــك حتـــى لا تكـــاد تـــرى ... إلا وأنـــت ببـــرد الحـــزن مشـــتمل
وتجـــرع اليـــأس صـــرفاً دونمـــا ملـــل ... بخمـــر حزنـــك مســـلوب الحجـــى ثمـــل

فالأسى، شعل، والشاعر طود ثابت، والحزن برد يلبس مرة وطعام يجتر مرة أخرى وخمر يسلب الحجى مرة ثالثة، واليأس شراب يجرع، وكلها صور تقوم على التشبيه الحسي الذي يعبر عن المعنى مباشرة من خلال الوعي التام بحدود المشبهات وصفاتها التي تستدعي الربط بينها لتأليف الصورة– أما النوع الثاني فنمثل له بقول الشاعر:

ما بال عينيك لا ترقا مدامعها ... كأنها حين تهمي عارض هطل
ما لي أراك هجرت الصحب منزوياً ... في عقر بيتك يرعى روحك الوجل
وتقطع الليل مهموماً ومنكسراً ... يشوي فؤادك من هول الأسى الوهل
إن الشقاوة أخت أنت توأمها ... كأن نجمك مذ جئت الدنى زحل

ورغم أن بعض الصور في هذه الأمثلة يقوم على تشبيهات مباشرة واضحة الأركان والأشكال فإن التشبيه فيها يؤلف منظراً كلياً يثير من الشعور ما يعبر عن المعنى المراد من خلال الإطار العام للصورة وتحويل الإحساس بالأشكال في التشبيه وفي التباين بين الصور القائمة عليه عمقاً واتساعاً وتأثيراً شعورياً وقيمة فنية.

أما التناول التقريري في جانب من أسلوب الشاعر في القصيدة فإننا نجده في غير موضع، وقد يأتي متلاحقاً في أبيات متعاقبة ومن ذلك قوله:

وفي الصلاة وفي التسبيح تعزية ... وفي التلاوة عن هول الأسى شغل
والله – جل – بأي الذكر بشرنا ... "ما مات من في سبيل الله قد قتلوا"
محمد لم يمت من أجل غانية ... ولم يقاتل وفي أعماقه دخل
لئن قضى نجلنا فالله أكرمه ... بأن يشفع إما تشفع الرسل
وحسبنا أنه أودى بمعركة ... وأنه كان نعم الفارس البطل
يا ربة الطهر يا خير الرفاق على ... درب الحياة... رعاك الواحد الأزل
قد قلت حقاً فما من كربة نزلت ... إلا والله فيها حكمة جلل
استغفر الله من يأسي ومن جزعي ... ومن وساوس نفس حكمها خطل
ومن سكون على ضيم ومظلمة ... ومن خنوع ومن قول ولا عمل

والروح التقريرية واضحة في إكثار الشاعر من استخدام أساليب العطف والنفي والاعتراض والاستدراك والاستثناء، واستخدام ألفاظ مثل حسب، ونعم، للربط بين عبارات وكلمات إخبارية متساوية المعاني ليس فيها إلا تشابه المعنى بالإثبات أو اختلافه بالنفي مما يجعل للعبارات والمعاني حدوداً صارمة تبعدها عن إيحاءات الشعر ولا وعيه وتدنو بها من دائرة المنطق والتعليل.

وإذا كان الشاعر قد اعتمد في معانيه على الكثير من المنازع الدينية فإنه لا ينسى أن يطرز معجمه اللغوي ببعض ألفاظ القرآن الكريم من مثل: (وليس من بعد عسر غير ميسرة، ما مات من في سبيل الله قد قتلوا، ضلت به السبل) ولا يفوتنا القول أن الشاعر قد يكرر معنى بعينه في أكثر من بيت كقوله:

محمد لم يمت من أجل غانية ... ولم يقاتل وفي أعماقه دخل
وأنه قد قضى من أجل عزتنا ... وما تصباه أمر تافه وشل

وقد ورد أحدهما في المقطع الأول وورد الثاني في المقطع الثالث، وكذلك قوله:

قالت إلى الله لا تقصد سواه ولا ... تفزع لغير حماه أيها الرجل
لا تطرقن سوى باب الإله فمن ... يطرق سواه فقد ضلت به السبل

وقد ورد البيتان متتابعين في المقطع الثالث: كما أن الشاعر وقع فيما يسمى بالإيطاء في القافية وهو تكرارها بكلمة (الرجل) في البيت الخامس والسادس والعشرين، وعذره في ذلك طول المسافة بين الموضعين، وعلى ذكر التكرار فقد جاءت كلمة (الدنا) مرتين متتابعتين وهي جمع غريب كما نص الثعالبي في يتيمة الدهر في باب حديثه عن غريب ألفاظ المتنبي الذي استعمل هذه الكلمة في قوله:

أعز مكان في الدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

وينقل لسان العرب عن ابن الأعرابي أنها جمع (دنيا) على وزن فعلى مثل كبرى وصغرى وهي دنا بالتنوين مثل كبر وصغر. أما قول الشاعر (حكمه جلل) فإن كلمة جلل لم ترد في لسان العرب مع المؤنث، بل نص على أن (الجلل) هو الشيء العظيم والصغير الهين وهو من الأضداد في كلام

العرب، ويقال للكبير والصغير (جلل). ويقال فعلت ذلك من جلل كذا وكذا، أي من عظمه في صدري. وفعلت ذلك من جلالك أي من أجلك، وأنت جللت هذا على نفسك أي جررته وجنيته، وقال: (الجليل) هو الثمام إذا عظم وجل وهو نبت ضعيف يحشى به خوص البيت وواحدته جليلة والجمع جلائل.

وفي الختام نقول: أن شعر الشاعر د. رجا سمرين شعر يتفوق في موضوعيته لأن المعاني التي يتعرض لها هي المعاني التي تمس قلب القارىء وتؤثر فيه حتى لو قدمت مباشرة أو بقليل من التصوير الفني والأسلوب الإيحائي الذي يسمو عادة بموضوع التجربة الشعرية إلى آفاق من التجلي الشعوري.

هذه المعاني تملأ نفسية كل عربي يشعر بالضياع والفقد وتيه المقصد، فما أن يقرأها – ولو كانت بثوب وصفي تقريري – حتى يحس أنها تعبر عن موقفه وقضيته في الإطارين الخاص والعام، ومن ثم يتفاعل بها وقد شعر بالراحة النفسية والرضا الوجداني، وتلك لعمري هي لحظة قبول الشعر والسماح له بدخول دائرة المعالجة الفنية.

هذا مع ما أشرنا إليه سابقاً من أن الشاعر يسمو في بعض المواقف خلال التجربة إلى درجات من التحليق الفني في آفاق التصوير الشعوري الإيحائي إلى جانب تفوقه الموضوعي.

رسالة إطراء...

هذه الرسالة غير المكتملة كان قد عُثر عليها من بين أوراق ومخطوطات الدكتور رجا سمرين. ولم نتمكن من معرفة مرسلها... وفيما يلي نورد الرسالة:

إلى شاعر الحرية..

حينما شحذت قلمي لأكتب إليكم شعرت بالخجل والتردد خوفاً من التقصير بحقكم.. فاحتار الفكر بما يبدأ.. وتلعثمت الحروف في عباراتي.. وغرقت كل الخواطر في بحر التيه والحيرة.. وانحنت كل فنون الشعر والنثر وسحر البيان. يا سيدي "إذلالاً لكم لتضحي صدور الشعر وعجزها صاغرة أمام كبريائكم.. وتكسرت كل القوافي أمام شموخكم.. فأنتم أصل الكلام ومنتهاه.. وأنتم المبتدأ والخبر في جمل التكوين.

سيدي...

ماذا أقول فيكم؟! أأقول بأنكم منبع الشعر والأدب؟ أم فيلسوف يروض النفس ويهذبها.. ويغرس في الأذهان معاني المحبة والإكبار.. وتدخل القلب دون إذن أو إشعار.. فالشمس من المحال أن تغطى بغربال.. فأنا التائه في وصفكم وكلماتي تزهو بكم وتعلو.. وعباراتي بكم تتألق وتحلو.. وأخشى أن أقصر في إيفائكم حق الإشادة والمديح في عزوبة ما تملكونه من ملكة الكتابة وضياء الكلام.

سيدي الفاضل...

لقد تلمست فيكم الرجل العاشق للحرية وللأوطان حتى الثمالة.. فأنتم الراسخون في مبادىء لا تتزحزح.. والثابتون في مواقف.. صلابتكم لا تلين ولا تترنح..

قرأت فيكم ياسيدي ذلك الفارس المغوار الذي يمتطي صهوة الجرأة وقول الحق.. مناضلاً كابراً عن كابر.. تشهد لكم الساحات والمقابر.. بدمكم الزكي الثائر.

وسيبقى قلمكم يا سيدي سليطاً على الذل والهوان، لا يثنيه عن الصدق جبروت المتجبرين ولا حقد الحاقدين.. وسينقش فوق صدور الأحرار "عاش الوطن" أبد الدهر.. ولا بد لعودة إلى الدار.

عميد الحرية..

أوراق الشتات.. وآه يا أوراق الشتات كم تحملين بين ثنايا خطوطك ندى إبداع يسمو فوق السحاب.. ففي كل سطر تتجسد أسطورة رجل عاش مرحلة الطفولة البريئة في خنادق النضال وبيوت الكتاب إلى أن شاءت الأقدار أن تشهدوا الاغتصاب..

آه من دموع تغور وأنتم تعاصرون الماضي الأليم بكل جراحه الغائرة في جسد التاريخ.. وكنتم يا سيدي شاهدين على مخاض عسير لتاريخ مصحوب بالمعاناة والأذلال سميت النكبة.. وما هي حقبة من الأعوامجتى وضعت لنا الأيام حملاً ثقيلاً عرفوه من وقتئذ بالنكسة السوداء..

يا سيد الشعراء..

كم أمتعتني قصائدك الرزينة المعلقة فوق صدر الزمان كإكليل من الفخر والأقحوان.. فكلماتك المتدفقة من قلب ينبض بالثورة تفجرت كحمم البركان..

تراني "يا سيد الشعراء" ألتهم كتاباتك المخملية بشهية مفتوحة.. وأدندن بها كترنيمات تطرب قلبي.. فتجعلني أرتعش بحروفها وكلماتها وصورها.. وأنتعش بما جال به خاطركم من أشعار لتتأجج مشاعري بلا استئذان فتضحى جمراً من نار..

كم شعرت بحجم الفخار وأنا أغترف من مناهل علمكم الفياض وبحر عطائكم الذي لا ينضب الكثير الكثير.. فأنا مهما كتبت فيكم من إطراء وتبجيل ما هو إلا غيض من فيض وقطرة في بحر.. فيا ليت الخواطر تسعفني.. والمشاعر تنجدني لأفيكم جزءًا من .....

جريدة الدستور الأردنية

في عددها الصادر رقم (16066) من يوم الجمعة الموافق 7 تشرين الثاني 2014م، أفردت جريدة الدستور ثلاث صفحات عرضت فيهم مجموعة من الدراسات التي ألقاها المحاضرون في الندوة العلمية التكريمة التي أقامتها رابطة الكتاب الأردنيين في الاحتفاء بالدكتور رجا سمرين:

- (رجا سمرين.. رؤية تأريخية لتجربة العقاد الشعرية) بقلم **الدكتور محمد صالح الشنطي**.
- كلمة بعنوان (نخلة باسقة) بقلم **معالي د.محمد جمعة الوحش**.
- (الوطن في شعر رجا سمرين) بقلم **الدكتور فهمي توفيق مقبل**.
- (الرثاء في قصائد سمرين) بقلم ابنة المحتفى به.
- وتحدث في الندوة الدكتور رجا سمرين عن (تجربته الشعرية).
- وألقت الشاعرة **مريم الصيفي** قصيدة بعنوان (رفيق الدرب).
- وتحدث الأستاذ **غالب سمرين** عن (تجربة سمرين في عيون النقاد والأدباء والإعلاميين).

رجا سمرين.. رؤية تأريخية لتجربة العقاد الشعرية

د. محمد صالح الشنطي

رجا سمرين شاعر من جيل الرواد المؤسسين. الذين كان لهم شرف التأسيس للمشروع الإبداعي الثقافي التربوي في هذه البقعة الغالية من وطننا العربي. حيث رفرف الأردن بجناحيه الشرقي والغربي في سماء الحضارة العربية تأسيسا وتطويرا: ريادة وتأصيلا.

ولقد اخترت أن أتوقف عند قصيدتين من قصائده تعدان نموذجين لهما دلالتهما التاريخية فضلا عن خصائصهما الفنية: أولاهما تقف عند علم فذ من أعلام أدبنا العربي المعاصر، هو العقاد. وربما بدت هذه القصيدة تقليدية من شعر المناسبات الذي حفل به شعرنا العربي في عصر الأحياء الأول. وعدد النقاد كلاسيكيا: فقد اكتظ به ديوان الشعر العربي في بدايات النهضة. لكنني عقدت العزم على النظر إلى الظواهر والأعمال الأدبية في سياقاتها التاريخية تأسيا بما تعلمناه من أساتذتنا الذين غرسوا في وعينا أن الظواهر نتاج جملة من الظروف التاريخية المحكومة بشرائطها الزمانية والمكانية..

سمرين

هذه القصيدة هي، في ذكرى العقاد، التي تحمل دلالتين رئيسيتين. الأولى استذكار لجهد الأديب الذين أسسوا لمشروع النهضة العربية المعاصرة. وهي خطاباتهم تحملت بدور الفلسفات التي تمخضت عنها مذاهب الأدب الكبرى. وقد اطلعوا على كنوز الثقافة الإنسانية في تجاذجها العليا، وهو ما يرونق لكاتب وشاعر وعرب أراد للأجيال التي تتلمذت عليه أن تحتفل بكل الذخائر الإنسانية في أرقى عنفوانها.

الثانية: الوفاء والاستذكار. فالشاعر يكتب هذه القصيدة وفاء لعلم كبير من أعلام الثقافة العربية المعاصرة بما أثر عنه من معارف موسوعية. وهو ينتمي إلى فلسفة العقاد في إحاطته الواسعة بمعارف تراثية وعصرية. وبما أحدثه عميقا في الأجيال التي تتلمذت على يديه.

وليس من شك أن معرفة الشاعر بحقولها الدلالية المختلفة هي منبع الدلالة ومدخل الولوج إلى رحاب الرؤية لدى الشاعر. خصوصا إذا كان الشاعر ينتمي إلى المدرسة الرومانسية بنوعيها الوجداني التأملي، وهي المدرسة التي نهضت بالدور الرئيس في التعبير عن الحقبة التأريخية التي عهدت تفتح الوعي في عالمنا العربي. من هنا لا بد من الإشارة إلى أن الكلمات المفاتيح التي وردت في القصيدة ستكون المحور الأهم في مقاربة القصيدة والحديث عنها لأن من خلالها يكون الولوج إلى عالم رجا سمرين ورؤيته وفكره.

هناك محورات يمكن التقاطها بوصفها مدخلا للشعر على ما يريد أن يبوح به الشاعر.

الحلالة ثم الصفيرة، وهي أسماء معان محفلة الدلالة قائمة على التحريف، وتمثل من خلالها الشاعر جهود العقاد ودوره ومكانته. فالحلالة ذروة التوقير والاحترام، وقد ورد آخرون أن هذه مبالغة، ولكن لنتمم سياقه الخاص. فالشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا. والحلالة هنا يستشعرها بوعيه وجدانه ورؤيته، وهي الدور الذي نهض به العقاد في مجالات متعددة، فهو رائد في نقده وشعره. وهو من المدرسة الوجدانية في الشعر العربي التي استشرفت آفاق الرومانسية العربية من خلال مدرسة الديوان التي ينتمي إليها، وهو دور مهم في مسيرة الأدب العربي الحديث. وكنا يعرف أنه جدد في لغة الشعر العربي من خلال ديوانه «يوميات عابر سبيل». وله موقفه المستقل الذي يعبر فيه عن موقفه ورسالته حين خرج من السجن بعد اتهامه بالطعن في الذات الملكية بمصر تحت قبة البرلمان.

"وكنت جنين السجن تسعة أشهر
وها أنذا في ساحة الخلد أولد
عدائي وصحبي لا اختلاف عليهم
سيعهدني كل كما كان يعهد."

وظل على إصراره على هذه الرؤية بعد قيام ثورة يوليو في العام ١٩٥٢، وثمة العديد من المواقف التي تؤكد ذلك وهو ما لا يتسع لذكره المجال في هذه العجالة.

هذا الموقف من المواقف المبدئية التي تعبر عن إيمانه بالحرية، وهي تجسد دور العقاد المفكر صاحب العبقريات، وصاحب الصالون الأدبي الذي ترعى فيه عدد من رموز الأدب، ومن بينا لم يقرأ كتاب أنيس منصور "في صالون العقاد"، وكتاب عامر العقاد عن عمه العقاد، وكتاب شوقي ضيف "مع العقاد"، وكتاب رجاء النقاش "صفحات مجهولة من الأدب العربي الحديث".

لقد أحببت الوقوف عند الكلمة المفتاحية الأولى وهي (الجلالة) ورديفها (العبقرية) في مستهل قصيدة رجا سمرين عن العقاد، أي انسحاح وقره الشاعر بين الجلالة والعبقرية وأسمى وأبهى ومعانيها ومعانيها! تناغم جميل ومبنى صيغة منتهى الجموح الذي جاءت عليها مفردة الضرب والعروض في تصريع ضم قافية انتهت بإيقاع الهاء المتصل بحرف الألف المطلقة. وسبوقة بحرف المد. وهذا استهلال جامع في إيقاعه ومعجمه وكلمته المفتاحية.

الفكر وربة الشعر، وهما مدخلان رئيسان لشخصية العقاد، لذا ذكرهما سمرين في البيت الثاني من قصيدته. فربة الشعر عند الإغريق هي ملهمة الشعراء، والعقاد شاعر تلمذ على يديه الاحتذاء بالفكر، ولهذا كانت شهرته بوصفه مفكرا من الطبقة الأولى، والاحتفال به شاعرا يأتي في المرتبة التالية، وهذا ما جعله يقول: "وسائل الفكر من أعلى مراتبه" قبل أن يذكر "وربة الشعر من زكى محابيه". هذا الانسحاح النصي من أهم ما امتازت به قصيدة سمرين، ومعروف أن الانسحاح النصي والتماسك النصي محوران رئيسان في اللسانيات.

ليس هذا فحسب، بل إن القصيدة تتسم بالتماثل في التراكيب النحوية حيث كان أسلوب الطلب الأمري الذي استهل به قصيدته متماثلا: يمثل الحركة الرئيسة في خطابه الذي رسخ رؤيته الشعرية وبنيته الهيكلية المتميزة. حين قربها إلى المفردات المطلقة الدلالة مجسدا لها في تعبير استعاري حيوي منح الصورة صفة مشهدية حوارية فضلا عن فعاليتها الوجدانية التي استندتها من مخالب التجريد.

وصرف عنه الأسلوبيون: أن الأساليب الطلبية عماد القافية وميت الانفعال. لذا تدفقت بالتمني. حيث محاطبة غير العاقل. فاختلف في خطابه الطلب والاستعارة في انسجام أسلوبي بتم عن تمكن واضح من ناصية البيان الشعري.

الخصومة، ومعروف أن العقاد كان خصما عنيدا، له سجالاته الساخنة ومعاركه الفكرية التي خاضها مع أعلام الأدب في عصره، طه حسين، ومصطفى صادق الرافعي الذي كان الأعنف في خصومته كما يتجلى ذلك في كتابه الشهير "على السفود". وقد بدا رجا سمرين متحازا له مبررا لخصومته مع الآخرين، فتاعرنا بعده موجها لخصومه إذ يقول:

"من كانت خصومته للفكر توجها" فهو - في نظره - المعلم. لذا كانت أبياته الثلاثة التي تلت الثلاثة الأولى حافلة بالتقرير، مباشرة ذات تراكيب نحوية منطقية اعتمدت على الجمل الشرطية في الدرجة الأولى، وإن لم تخل من التصوير البياني الذي يتوسل بالصورة في خاتمتها البلاغية المتداولة: فهو منارة وهو علم شامخ.. وهي مراحة تتكئ على أدلة عقلية منطقية. فالعقاد، كما يراه سمرين في قصيدته، لم يخضع للحظات، ولم تثن قناته أمامهم، ولهذا جاء معجمه حافلا بالألفاظ الكونية الدالة على العظمة بوصفها حفاظ «لالية رئيسا: الفجر والنور والمنارة والعلو» الشامخ والحق والعلماء.

سدرة المنتهى، وهي لفظة قرآنية تعزز الرؤية التأريخية لدور العقاد حيث ارتقى به إلى مرتبة عظيمة.

"ماذا أعدد في ذكراك يا فيما
من سدرة المنتهى في الأرض يحميها".

وهو ما يجعل في الأبيات التي جاءت في القسم الأول من القصيدة، يفصل في القسم الثاني مآثر العقاد محتفلا سمة التماسك النصي عبر منهج الانتقال من العام إلى الخاص. بحد أن يدحض دعاوى الخصوم، مستحضرا عبر العدل التناسي بعض جوانع الكلم من الأمثال والحكم في قوله:

"ما صوبها لو بغاث القوم أنكرها
العربي إن الجبال بأرضنا تستمر".

وفي قوله: "هل ينكر الشمس إلا عين عانية".

استحضار يعبر عن مرجعيات الشاعر ومصادره الكلية، ويتسجم نصيا ودلاليا مع الدلالات الشاملة لهذه الرؤية.

الإسلام، وهو يسترجع أعمال العقاد ومؤلفاته مشيرا إلى أنه قد نافح عن بيضة الإسلام بما قدمه من مبعثريات من هنا كانت لحظة الإسلام من الكلمات المفتاحية التي ظلت محورا خاصا بالعقيدة والهدى والعمل والحصد والضلالة والغي والرغبة والرأي والنفس والهدى وأي الله، وما إلى ذلك من الخاط انتشرت في فضاء خطابه الشعري.

الزمن والبوم من الكلمات المفتاحية في القصيدة. فالشاعر يضبط العقاد على بعده الزماني والمكاني عن حاضر العرب الذي يشهد التمزق والتفكك. فهو يهنئه، وهنا تتجسد المرارة التي تذكر الشاعر بالواقع المرير الذي جاء عليه العقاد وتأسى عليه. وهي لفظة لما تمخض عنه.

ثمة حقول دلالية أخرى لها مفاتيحها المتصلة بمعجمه الشعري، فالنور واليقظة والخطوب والكلوم والأشاوس، وغيرها كلها تتصل برؤية الشاعر وتتناغم مع تشكيله الجمالي للقصيدة، وتلاءمس وجدانه وحسه بالمرحلة ورموزها ومتطلباتها.

الندوة وعامر وكعبة البيان، فالكلمة المفتاح هي الندوة الشهيرة التي بدت مدرسة تحيل من الأدباء الذين تتلمذوا على يدي العقاد، وهي تمثل محطة تاريخية مهمة في ثقافتنا المعاصرة. لذلك عمد سمرين إلى ذكرها في قصيدته، وكان من الطبيعي أن يذكر معها عامر العقاد.

وقد ظل في السياق الذي يكفل الانسجام والتماسك في النص الشعري، فالإطار اللغوي بقي في حقله القرآني والتراثي، وكثف الشاعر بكثف المفردات التعبرية التراثية الشعرية القديمة، يعني، كاشج وصب... ما يؤكد الانتماء إلى التيار الإحيائي في الشعر العربي الحديث.

تتكون القصيدة من ثلاثة مقاطع، الأول يمثل فيه العقاد محور الغائب الحاضر الذي جرد فيه الشاعر المعاني والقيم التي يمثلها من فكره وجدانه وفكر وجدان جيله، وقد عبر عليه بضمير الغائب فكان الشاعر الفاعل الرئيس الذي يخاطب ويصف ويفسر. وهذه حركة أولى، فتناصية كان الصيغة الأساسية فيها صيغة طلبية أمرية، "حيوا" و"سائلوا" و"ناشدوا"، ابتدأت بها الأبيات الثلاثة الأولى على التوالي، وكان المخاطب فيها الجمع المحتشين به الذين يمثلون أتباعه وتلامذته ومريديه.

أما الحركة الثانية فكانت أدلة منطقية عززت طلب الشاعر وبررت الاحتفاء به، وكانت القسمة من حيث الكم والكيف عادلة بين الحركتين. وقد توزع الخطاب بين فواعل ثلاثة: المتكلم/ الأنا الشاعرة (رجا سمرين)، والمخاطبين (أنتم)، والضمير الغائب (العقاد)، فكان البيتان الأخيران حركة متفرعة من الحركة الثانية خاصة بالحديث عن العقاد.

أما المقطع الثاني فالحركات التعبيرية فيه ثلاث. الأولى تمثلت في خطاب العقاد مباشرة في التفات بلاغي واضح. وقد جاء الخطاب بالضمير المفرد تارة وبالجمع تارة أخرى. وقد كان الصوتي السردي الذي يتوسل بالفعل الماضي منهج الشاعر في هذا المقطع من القصيدة. لأنه يروي مآثر الشاعر، وكلها يقع في الزمن الماضي بعد أن انتقل الشاعر إلى حاور رجه. وقد حاول أن يستلهمي هذه المآثر، وبدت الحركة الأولى في مستهل المقطع في التفاتة قوية "ماذا أعدد في ذكراك يا فيما" في البيت الأول من المقطع. "في عالم الفكر تمثالم محلة" في البيت الثاني. وهذا الخطاب للغائب الراحل بلا ريب يكون للتمني، وهو الدعاء من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

أما الحركة الثانية في المقطع، فتتحرك في التفات آخر يسترسل في نفس سردي متصل مخاطبا العقاد في محضوره الشعري في القصيدة. أما الحركة الثالثة. وهي لا تنفصل عن الثانية، فتتحرك في الانتظاف في الخطاب من ذكر المآثر إلى تهنئة الشاعر بفيايه عن المشهد البائس الذي تعيشه الأمة. وهنا تتبدى المفارقة التي هي جوهر الفن بين الحضور العيني والغياب المستحب.

أما المقطع الثالث فيمثل حركة واحدة خاتمية توصل وتوثق للدور المفصلي الذي نهض به العقاد تاريخيا، وهو التدوق. لذا جاء امتدادا لسرد المآثر.

فكان الخطاب بصيغة الحضور للغياب.

المنهج التراكمي في بناء القصيدة يحمل من القصيدة وعاء تاريخيا، ولكن هذا البناء التراكمي ليس عشوائيا، بل بنى عن هندسة لغوية تنسجم من خلالها الصيغ والصور والدلالات. وتتناغم عبرها الرؤية. فالتراكم الكمي المقصود هنا هو الذي يحدث تحولا كيفيا في وجدان المتلقي. فلا يمل بل يزداد وعيا وفهما، وهو تراكم يقوم على التكرار المقصود الذي يؤدي غرضا بلاغيا. "فتنبق دوما على الأيام عامرة بعامر" "لتبق كعبة عشاق البيان".

تناءت القصيدة على طريقتها الخاصة ومن منطلقات صاحبها وقناعاته، فهو الذي اضطلع بمهمة الرواد الأول والذين اقتفوا آثرهم وسارورا على منهجهم.

رجا سمرين، الذي تداوله سمعي وبصري كانيا وشاعرا وكاتبا في مطلع الشباب، في وقت كانت ترجم أسماعنا وأبصارنا فيه أسماء مهمة من أبناء ذلك الجيل الرائد الذي يفصله عن جيلنا ما يقرب من عقدين من الزمان، كان علما له حضوره. وله أثره البين مربيا وكاتبا وشاعرا. كان يماني، وكانت معاناته في شعره معاناة ذات طابع إنساني، وإذا كان من غير الممكن أن نفصل بين المعاناة الذاتية والمعاناة الوطنية، وبين المنطلقات التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية.. كان ابن عصره ومأساتها وجدانيا تضيق نفسه بما لا يطيق من زيف.

من هنا كانت قصيدته "الهاربون والأيام"، فكان شعره بوحا ذاتيا خالصا وتعبيرا يتسجم مع توجهات المدرسة التي منتها العقاد مباشرة، بما كان يعرف في الشعر الإنجليزي بمدرسة "النبوة والمجاز" التي تحدث عنها محمد مندور في كتابه عن الشعر المصري بعد شوقي ووقف عند أعلام مدرسة الديوان وخصوصا العقاد، وهن القلق الذي كان يعاني منه بوصفه قلقا فكريا عقليا بخلاف المازني الذي وصف قلقه بأنه كان قلقا نفسيا وجدانيا. أما زميلهما الثالث شكري فقد جمع بين الأزمنين.

وربما كان قلق رجا سمرين من النوع الذي كان يعاني منه العقاد، وهو القلق الفكري. وهو مبرر إذا عرفنا أن رجا لم يكن شاعرا فحسب، بل كان مربيا في الدرجة الأولى ومفكرا على نحو من الأنحاء. وسأحاول أن أتبين من خلال قصيدته "الهاربون والأيام" بعض ملامح هذا القلق.

تشكل مفردتا "المجهول" و"اللامعقول" كلمتين مفتاحيتين في القصيدة. وهو في بوحه الرومانسي يستخدم كلمات ذات دلالات عقلية محددة، "النور الأحمر".

"وهربت وما زالت لجرحي خلتي الأيام
تقذفني بالنور الأحمر".

فهو في حالة فكرية وعقلية. فالأيام تذكي فيه الرغبة ولكنها تحدره وتصده، وتدفعه نحو المجهول واللامعقول، وتصابه حلمه. هذا الإدراك الواعي يعبر عن تلك النزعة التي مثلت جانبا من جوانب الرومانسية التي بدأت تبرز في الشعر آنذاك.

والشعراء يقفون حيرى أمام معطيات تلك المرحلة بما حفلت به من هزات اجتماعية واقتصادية وسياسية. وخصوصا مرحلة مقاومة الاستعمار والصهيونية. وما تمخضت عنه تلك الهزات من مخرجات، وما لابسها وتبعها من ارتدادات.

لقد استبدت الأزمة الفكرية الوجدانية بأبناء ذلك الجيل في الوطن العربي الذي صدمته حرائط سان ريمو، وسايكس بيكو، ووعود بريطانيا وخذلانها. وكان رجا سمرين من شهود تلك المرحلة بامتياز.

ثمة هندسة عقلية في القصيدة تتم عبر اختيار الفعل المضارع بوصفه سيد المشهد وصانعه. ليبدو فيه الذات منسوبة إلى فعل الهروب. وهو الفعل الماضي الوحيد الذي تكون له الذات الشاعرة فاعلا. ويأتي الفعل الماضي الثاني (وما زلت) مؤكدا لاستمراريته. بينما يقع في موضع المفعول لبقية الأفعال.

"وهربت وما زلت تجري خلتي الأيام"..

"تجري تقذفني تلهيني وتدهمني وتبدد ونشد"..

هذه الأفعال كلها منسوبة إلى الدنيا، والشاعر في موقع المعطار الذي يحاول أن ينفلت من عقال تلك التي تتربص به ماضيا في طريق الخلاص. لكن ثمة من يقطع عليه الطريق ويعيده من النوافذ بأكناف الأمن، وهو هنا يستخدم المجرات الدهنية محاولا تمثيلها تمثيلا رمزيا قريبا في مشهد متحرك، فرضاعة النيران من ذي الهولة في مقابل برد الأشواق أمثولة رمزية واضحة المعالم. وهذا المشهد برمته ذو طابع رمزي يعبر عن نزعة عقلية شديدة الوعي تشدنا إلى ما عرف به هذا الجيل من مكابدة لأعوال المرحلة التاريخية التي عاش فيها، وهذا يدكرنا بالعقاد ونزعته العقلية في شعره حيث التعبير عن الأزمة العميقة التي عبرت عنها الحركة الشعرية الرومانسية في بواكير ظهورها كما عبرت عنها مدرسة الديوان بزعامة عباس محمود العقاد. لكن الملاحظ هو استثمار الشاعر تقنية السرد والوصف هنا وتقنية الحوار أيضا، ولم يكن الوصف المشهدي وحده ليفي بغرض التعبير عن التحديات التي انتصبت في وجه المبتلى الذات على المستويين الفردي والجماعي فكان السرد الدرامي بديلا عن الأسلوب الغنائي، من هنا كان سمرين على المستوى الفني مواكبا لنمو الفن الشعري الذي نهضت به جهود الديوانيين التي تناغمت مع ما أفضت به المدرسة المهجرية.

لقد عبر شاعرنا عن ذلك كله حين عمد إلى أسلوب البناء المقطعي في قصيدته السابقة، فقدم ثلاث لوحات في ثلاثة مشاهد، الأولى تمثيلية رمزية، والثانية سردية انتقل فيها من موقع المعطار من الأيام إلى موقع اللاذ بكوخه الأصغر في القرية متواريا عن أنظار الآخرين. منهما بالحنين من قبيل الأصدقاء الذين كانوا يرافقون المشهد ساخرين من جبنه. وهذه اللوحة تمثل ذروة الأزمة حيث ينحي عليه أصدقاؤه باللائمة، طالبين منه المودة وأطراح الخوف جانبا. لكنه يعود ليدور في الحلقة المفرغة نفسها حيث الهولة وتدبها الذي يُرضع اللهب.

ثلاث لوحات شعرية قدمها رجا سمرين في قصيدته، بدأت بالهروب من مواجهة ما أسماه "الهولة" التي قطعت هذه الطريق وطاردته أثره البين مربيا وكاتبا وشاعرا. كان يماني، وكانت معاناته في شعره معاناة ذات طابع إنساني، وإذا كان من غير الممكن أن نفصل بين المعاناة الذاتية والمعاناة الوطنية، وبين المنطلقات التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية.. كان ابن عصره ومأساتها وجدانيا تضيق نفسه بما لا يطيق من زيف.

من هنا كانت قصيدته "الهاربون والأيام"، فكان شعره بوحا ذاتيا خالصا وتعبيرا يتسجم مع توجهات المدرسة التي منتها العقاد مباشرة، بما كان يعرف في الشعر الإنجليزي بمدرسة "النبوة والمجاز" التي تحدث عنها محمد مندور في كتابه عن الشعر المصري بعد شوقي ووقف عند أعلام مدرسة الديوان وخصوصا العقاد، وهن القلق الذي كان يعاني منه بوصفه قلقا فكريا عقليا بخلاف المازني الذي وصف قلقه بأنه كان قلقا نفسيا وجدانيا. أما زميلهما الثالث شكري فقد جمع بين الأزمنين.

وربما كان قلق رجا سمرين من النوع الذي كان يعاني منه العقاد، وهو القلق الفكري. وهو مبرر إذا عرفنا أن رجا لم يكن شاعرا فحسب، بل كان مربيا في الدرجة الأولى ومفكرا على نحو من الأنحاء. وسأحاول أن أتبين من خلال قصيدته "الهاربون والأيام" بعض ملامح هذا القلق.

تشكل مفردتا "المجهول" و"اللامعقول" كلمتين مفتاحيتين في القصيدة. وهو في بوحه الرومانسي يستخدم كلمات ذات دلالات عقلية محددة، "النور الأحمر".

"وهربت وما زالت لجرحي خلتي الأيام
تقذفني بالنور الأحمر".

فهو في حالة فكرية وعقلية. فالأيام تذكي فيه الرغبة ولكنها تحدره وتصده، وتدفعه نحو المجهول واللامعقول، وتصابه حلمه. هذا الإدراك الواعي يعبر عن تلك النزعة التي مثلت جانبا من جوانب الرومانسية التي بدأت تبرز في الشعر آنذاك.

نخلة باسقة

د. محمد جمعة الوحش

كان لقائي الأول مع د. رجا سمرين في الصالون الأدبي للشاعرة مريم الصيفي، وكان امتدادا لصالونها الأدبي الذي كان يعقد في الكويت، وكان قطب الرحى فيه هناك د. رجا سمرين.

لم تكن مصادفة دعوة مريم لي للحضور إلى صالونها الأدبي، فقد كانت زميلتي في الجامعة الأردنية قبيل العام ١٩٧٧ وبعده، حيث كنا ممتلئين حماسة وقومية وإصراراً على تحرير فلسطين من اليهود الغاصبين، وكانت الوحدة العربية أنشودتنا في الجامعات وفي الشوارع والمجالس والسجون. وحيثما كنا وحيثما حللنا، وكنت أنتقي مريم في رابطة أسسناها في الجامعة وأطلقنا عليها اسم "رابطة زملاء الكتاري" مستوحين بدعم قوي من أساتذنا د. محمد السمرة عافاه الله وأطال في عمره.

في صالون مريم الصيفي في عمان، كانت إدارة الحوار والنقاش برئاسة د. رجا، ولكنه ما لبث أن آمر على التنازل عنها بتواضع جم لي، وما كنت أرغب في ذلك في حضرة قامة أدبية مثل قامته، ولعلم فإن الصالون ما زال قائماً، وصاحبته هي كامل نشاطها وإصرارها على استمراره.

استضاف الصالون العشات من الشعراء والكتاب والنقاد والفنانين من الأردن والبلاد العربية وبعض البلدان الأجنبية. ومع أني كنت أتولى إدارة الحوار في الصالون في أغلب الأحيان فإن أسلوبي في النقد كان لا يخلو من قسوة، وهي قسوة غير مقصودة لذاتها، وإنما لفتح أبواب جديدة للحوار، ولا يخفى أنني من دعاة التجديد في الشعر، ومن المعاهدين عن شعر التفعيلة كما هو عند بدر شاكر السياب ومحمود درويش ونازك الملائكة ومن في طبقتهم من الشعراء بصرف النظر عن أوطانهم، وكانت قسوتي أكثر ما تكون على مريم الصيفي و(المرحومة) سهلا الكيالي والشاعر خالد فوزي عبده وأحياناً على د. رجا سمرين، ولأن روح التجديد تتمثل في شعره وإن كان شعراً عمودياً، فليست المسألة هنا في شكل القصيدة فقط وإنما في خصائص فنية عديدة صارت معروفة لدى كل من أدركته حرفة الأدب.

وقد أدى هذا النقد إلى غضب كثيرين، بل إن بعضهم هجر الصالون وتوجه وجهة أخرى، وأشهد أن د. رجا كان يعاملنا جميعاً معاملة الأخ الأكبر المحب لإخوانه وأخواته، وأنه لم يكن يتبرم أو يتسخط. بل استمر في الصالون نخلة باسقة تؤتي أكلها الطيب في كل لقاء إلى الآن.

الوطن في شعر رجا سُمرين

د. فهمي توفيق مقبل

د. رجا سمرين واحد من الشخصيات الأدبية المرموقة من جيل رواد أعلام العربية النهضويين، الذين نذروا حياتهم لخدمة قضايا أمتهم المصيرية، وبذل كل ما يستطاع لإيقاظها من رقدتها، وحضها على مقاومة أعدائها لتطلعاتها في الحرية، والنيل من انتمائها الأثير لهويتها، وثقافتها العربية الإسلامية الأصيلة.

هذا الشاعر بحدوده الأصل والتفاؤل أن تسترجع أمته وحدتها، بدءاً عليا، وكلمة مسموعة، في الخافقين، وصولاً إلى الإصداء لقولة لا تُقهر، تمكنها من طرد الغزاة المحتلين من أرضها، من بحرها، من فضائها، من ثم وصولاً إلى التنمية العالمية، إلى حد أبعد من مفهوم التوازن في مواجهة قوى شريرة، عالمية، صهيونية، جهنمية، بغيضة، خططت في ليلة معتمة لاقتلاع شعب من أرضه، ومحص تاريخه، وتهديد أسباب البقاء، والوجود، للأمتين: العربية والإسلامية.

لقد استطاع سمرين أن يحمل من قصائده، الإبداعية، النارية، سهاماً ونصالاً، وسيوفاً لظى، بشارة، أفحمت مصاطيع العدو، فارقت صحوه، ومنامه، وفضحت جرائمه، وكشفت زيف أكاذيبه، ومخططاته الرامية إلى سلب واستلاع المزيد من الأرض العربية الفلسطينية، ولا غرو أن تغلب نزعته الوطنية على محمل قصائده المزهوة بحلية الوطن، واليوح حتى الوله بحبه، والتمس بالشوق والحنين إليه، معنى ومبنى، وفهماً، وبعداً، وظل هذا الشاعر الوفي الأبدي لأرضه وشعبه يحمل وطنه في داخله أينما حل وارتحل، باكياً أوجاع وآلام وعذابات نكبة شعبه الفلسطيني المفاوم، ونضاليها المتفاقمة.

جاءت معظم قصائد سمرين بخلاف معظم شعراء جيله ومدارسهم، حيث انحاز شعرهم - حد الإفراط - إلى الجانب الإنساني العام، ومع أن سمرين في العديد من قصائده شاركهم الهم نفسه، إلا أنه حافظ في أعماله الأدبية شعراً ونثراً، وبحوثاً ومؤلفات قيمة عديدة، التزامه، وانحياره، الأبدي، إلى معاناة وطنه، وشعبه، وأمته، من طغيان القوى الأجنبية الشريرة، التي تعمل على تفويض وحدة الأمة، وتفتيتها، من ثم الاستيلاء على أرضها، وثرواتها، ما فوق الثرى، وما تحت الثرى، من رحم هذه المعاناة جاءت قصائده تدعو وتنشد للوحدة والتحرر، ويحمل الهم القومي الإسلامي.

إن ما أبدعه سمرين من شعر، ونثر، وبحوث، ومؤلفات عديدة، رصينة محكمة، تضعه في مصاف رواد الأدب العربي الكبار، ويكبه علو كعب في مضمار الأدب والثقافة الموسوعية أنه صاحب تجربة متميزة، صحيح أنها لم تأخذ حقها في الدراسة والبحث، وهذا من الظلم بمكان، لكن هذا لا يقلل من قيمتها الأدبية الرفيعة النفيسة، وحسبه قامة أدبية سامقة بين رواد عصره من الشعراء الأدباء، شعراً ونثراً، ما قدمه من إنجاز كبير للمشهد الثقافي ولأجيال الأمة، فضلاً عن إصداراته البحثية، والنقدية القيمة، المعروفة، والمفتقد محلياً، وعربياً في الساحة الأدبية والفكرية والتربوية، والوطنية خاصة، ويوصف بعضهم بأنه واحد من فحول القصيدة العمودية، وسادن أمين للغة العربية، وقد تربت على يديه، وعلى منهجه الأدبي الأخلاقي، أجيال عديدة في الأردن، وفلسطين، ومصر، والسعودية، والكويت، وغيرها...

ومن أبرز صور الحياة الدائم في أعماله الأدبية بشكل لافت، جاءت صورة لتعظيم قيمة الوطن، والمثل العليا، فجاء شعره مقاوماً بامتياز، فلا تصالح ولا اعتراف ولا تفاوض مع العدو المحتل مستنهضاً بشعره شعبه وأمته، مناشداً رص الصفوف، والتمسك بخيار المقاومة مهما بلغت التضحيات، حتى تحقيق النصر واجتثاث العدو الصهيوني الأجنبي من أرض العرب، أرض فلسطين، بالتالي محو آثاره السلبية الكارثية، وتطهير الأرض من دنسه ونحسه الكريه، والتي لحقت عن عمد الحقبة التاريخية السوداء، من حياة الشعب الفلسطيني، والأمة العربية خاصة.

زد على ذلك أن الأدباء الكبار النقاد يعدون قصائده من عيون الأدب الأصيل وكنوزه شعراً ونثراً، مصوغة بلغة عربية من السهل الممتنع، ولحافي العامية وشرها الوبيل على لغتنا الفصيحة، كما وقفت قصائده بشخصيته الإنسانية الرفيعة الشفافة من أخلاق سمحة، ولواضح جم، ومشاعر رقيقة، فياضة، ومعشر حسن، توجها بعلم نافع، وفم ذهبي ينطق بالروائع، وقلب سليم طائع، وصدر رحب، واسع.

تمثل المسيرة الأدبية لسمرين، إلى أكثر من خمسة عقود، آثرى فيها المكتبة العربية بضروب المعرفة الهادفة، من مصنفات أدبية، وعلمية، وفكرية، وتربوية، قيمة، إلى جانب التنوع في حراكه الفكري، فقد برز في مشاركاته الإبداعية المتميزة في كتابة المقالات في معظم صحف العالم العربي ومجلاته الرصينة، والتي تجاوزت مائة مقالة ما بين أدبي وديني وسياسي، كما نوهت العديد من الصحف الأدبية (ذات عن ٥٠ مقالة، هذا بالإضافة إلى العديد من المقابلات الإذاعية والصحفية، والتلفازية، التي أجريت معه.

كما وقفت نشاطات الأديب الشاعر رجا سمرين المتعددة بحبه ولهه ببلاده فلسطين، فكانت على الدوام عشقه الأول، وجرحه النازف، الذي لم يندمل بعد، فقد أحب من أجلها كل من يقاوم لتحريرها، ولقنن ببطولاتهم وبكى شهاءهم، ومنهم ولده محمد، الذي ترك مقاعد الدراسة في جامعة حلب والتحق بصفوف المقاومة ليصد الاجتياح الصهيوني لمدينة بيروت في العام ١٩٨٢ فارتقى إلى جنة الخلد شهيداً بإذن الله تعالى، كما أظهر تعاطفه العميق مع حركات التحرير في وطنه العربي الكبير، وفي أنحاء العالم المختلفة، فتغنى ببطولات شعوبها، ورثى شهاءها.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة في هذا السياق إلى كتاب «الأعمال الشعرية الكاملة» الذي يضم بين دفتيه خمس مجموعات وعدداً من المنثورات ومسرحية شعرية واحدة بعنوان «الجنة الضائعة»، وهي مسرحية شعرية من أربعة فصول تصور أحداثها المرحلة الأولى من مراحل الصراع بين الفلسطينيين واليهود، بالجملة، لقد أكد سمرين في معظم أعماله، ولعه وشوقه العميل لوطنه، على وجه الخصوص في مجموعتيه «وتبقى الفوارس قرب الجياد» و«الضائعون».

لقد عرفت الساحة الأدبية في الأردن شاعرنا المخضرم الكبير منذ الخمسينيات من القرن الفائت، وقد كتب العديد من رموز الأدب وفحوله العرب عن بعض الجوانب الشعرية في شعره، ومن أبرزهم: كامل السوافيري، وناصر الدين الأسد، وعبد الرحمن الكيالي، وجميل سعيد، ومحمد عليان، ووأصف أبو الشباب.

الرثاء في قصائد سمرين

فاطمة رجا سمرين

إذا تصفحتَ ديواني لتقرأني
وجدتَ شعر المراثي نصف ديواني

بهذا البيت وصف شاعرُ النيل حافظ إبراهيم أهمية شعر الرثاء وكثرته في شعره، وذلك صحيحٌ إلى حد كبير، فهو لم يترك زعيماً من زعماء مصر ولا كبيراً من كبرائها إلا ورثاه.

وعندما توفي حافظ قبل أمير الشعراء شوقي رثاه شوقي الذي كان يتمنى أن يموت قبل حافظ بقصيدة مطلعها:

قد كنتُ أوثرُ أن تقول رثائي
يا مُنصفَ الموتى من الأحياء

وإذا صحتنا عن الرثاء في شعره رجا سمرين فإننا سنجدُهُ كثيراً وسنجد أنه قد عُني به عناية فائقة، وكانت أولُ قصيدة رثائية في «الأعمال الكاملة» للدكتور رجا سمرين، هي قصيدة «على قالونيا أبكي» التي يقول فيها:

«على قالونيا أبكي
بدمعٍ غير مُنفكِّ

على جنّاتها الفيحاء ذات العطر والعسك
على ما في مسالكها
من الأحجار والشوك
على ما في مرابعها
من الوديان والأيْك
على بيتٍ قضيتُ به
حياةً دونما ضنك».

أما القصيدةُ الرثائيةُ الثانية فهي قصيدة «رسالةٌ حبٌ إلى سيدي الوالد في مثواهُ الأخير»، وهي التي بدأها في اعتذاره لأبيه عن تأخره في رثائه:

«سيدي الوالد مهلاً لا تلُمْني
إنْ أنا أبطأتُ في التعبير عن حزني عليكْ
عقلُ المرْءِ لساني
أشعلَ النارَ بأعماقِ جَناني
ليتني يا والدي عند احتضارك
كنتُ أجتو خاشعاً بين يديْكْ
كي أرى كيف تموتُ الكبرياء
كيف يقْتالُ الردى روح الشهامة
كيف يقضي الجودُ والنحوةُ والحبُّ الكبيرْ
كيف ينهارُ البطلْ
قبل إشراق وتحقيق الأملْ

***

سيدي الوالدُ يا من
شهدتْ أرضُ فلسطين بطولات جهادكْ
قد نذرتَ العمرَ من أجل بلادكْ
لم تُرد جاهاً ولم تَبغِ جزاءً أو شُكورا
كلُّ ما أمّلتَ أن يبقى ثرى القدس طهورا
ليس فيه غاصبٌ يختالُ كِبراً وغُرورا.

وهكذا تحدثت روح الشهيد تاجي الهلي الذي اغتالته الأيدي الآثمة سنة ١٩٨٧:

«لأنني أبيتُ أن أكون مثلَ أغلب الرجالْ
مُدجناً كقطعة نادرة المثالْ
لأنني لم أرتكسْ في حمأة الضلالْ
ولم أُبدِّلْ مبدئي كما تُبدلُ النِّعالْ..

وقد رثى شاعرنا صديق عمره الشاعر السوري علي عمر الذي قضى نحبهُ غريباً عن مرابع صباه في قصيدة طويلة يقول منها:

«حماةُ أين علي
رئُ القريضِ المُحلى
صنْوُ الإخاء الوفيُّ
أين الذي قد تغنى
بسحر هذا الوجوه
بالزهر ينضحُ عطراً
بعالسات الخدود
آوّاه يا صنو روحي
يا خير خير الرفاق
رحلت دون وداعٍ
فهل لنا من تلاقي».

وفي قصيدته «الحقول أمْ ثرار» تحاول زوجةُ الشاعر «دعوة زوجها إلى الصبر بعد أن أحست أنه قد كاد يهجر الحياة»:

«أقولُ أم نزارٍ والأسى شَمِلُ
والنارُ في قلبها المكلوم تشتعلُ
ما بالُ عينيكَ لا ترقا مدامعها
كأنها حين تُهمي عارضٌ هطِلُ
تعجّبُ الناسُ مما أنت فاعلهُ
أما كفاكَ خيالاً أيُّها الرجلُ
محمدٌ لم يفتْ من أجل غانيةٍ
ولم يقاتلْ وفي أصحابه دَخَلُ
لكنه في سبيل الله قد بذلتْ
فقدتَ رفقاً بهذا القلب عاذلتي
«ماؤه كي يعود السهلُ والجبلُ
لا تعذليني فما إن ينفعُ العذلُ
وسوف أبكي على الأحباب ما قدرتْ
عيني على الدمع حتى يأتيَ الأجلُ».

وكانت أولُ قصيدة رثى فيها الشاعرُ ولدَهُ الشهيد محمد هي قصيدة «محمدٌ يا ولدي»، ومنها:

«يا لسعة النار التي يشوي لظاها كبدي
يا صرخة الحقّ الذي جرّح صمتَ الأبد
يا دفقة النور التي شعّتْ بدربِ السُّؤدد
ماذا أقولُ حين أرْثيكَ؟ وماذا في يدي؟
إنّا لفي خُسْرٍ وخذلانِ سرْمدي
لم ترفضِ الذّلّةَ. لم تُنهضْ لدربه المعتدي
وأنت والصفوةُ من أخوانك الثوار ملحُ هذا الزمن الردي

ليبتمْ النعاةُ
لفقدتم العدوُّ أصعب المدوّس
بدلتم النفوسَ
أصبتم البلاءْ
حطمتم أسطورةَ الجيش الذي لا يعرف الهزيمةْ
أتيتمْ أنّ الذي يُقْبرونا ليس سوى العزيمة».

وفي القصيدة الثانية التي رثى فيها الشاعر ولدَهُ الشهيد محمد يقول:

«محمدٌ يا حبيبَ الروح يا ولدي
أهولُ تجمعُ فتْ اليوم في عَضُدي
رحلتَ فارتحلتْ معَ سعادتنا
وعشتُ الحزنَ في الأعماق للأبد
فلا تمهلتْ من قبل العراق لكي
تودعَ الأهلَ والأحبابَ يا ولدي
لها عَهْدَتْكَ الأوّابينَ رحماً
ولا عرفتكَ إلا أخذاً بيدي
أهولُ والنارُ تشوي خافقي كمداً
يا ليتَ أنّي لم أولدْ ولم أُلد.
وقد رثى شاعرنا شهداء الفردان بقوله:

«لو كان يُجدي النّدْبُ والأحزانْ
أو كان تُرجعُ راحلاً أشجانْ
لقضيتُ عمري نادماً ومولولاً
ولطفقتُ أبكي بالدّما مَنْ باتوا.

وقد فُجعَ الشاعر بوفاة صديقه الأستاذ إبراهيم عابدين فقال في رثائه:

«بالأمس قد كنت ملء السمع والبصر
يا منبتَ النفوسِ
أستيتمُ البلاءْ
لن يمْحُو الموتُ ما سطرتَ من أثر
قد طاب عُرْسُكَ في أرض الكويت وفي
أرض الكنانة أعطى أطيبَ الثمر
علّمْ وفقهْ وأدبْ تزينها
شمائلٌ مثلُ نفح الروضة العطر
إن نفس شبانا فلن ننسى مجالسنا
تلك التي زنّتها بالشهد والدُّرر
إذ أنت في الصحب بدرٌ ساطعٌ وهمو
يبدون حولك مثل الأنجم الزُّهر
إن دُرّ فيهم خلالٌ حفّ شمعتها
سمْتُهُ بصوابِ الرأي في يُسْر.

وفي ذكرى «وفاة عباس العقاد» يشارك شاعرنا في تأبينه عدداً من الشعراء منهم د. محمد صلاح الدين وزير خارجية الحكومة الوفدية آنذاك. وقد أبكى شاعرنا اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية في حينه:

«حبوا الجلالةَ في أسمى معانيها
والعبقريةَ في أبهى مغانيها
وسائلوا الفكرَ عنْ أعلى مراتبه
وزينةُ الشعرِ مِنْ زكى مجانيها
وناشدوا كلَّ خصمٍ عن مآثرِ مَنْ

كانت خصومتُهُ للفكر توجيها
يكفيه فخراً بأنّ الله حصّنه
فلم يؤلّهْ طُغاةً في كراسيها
فيُبْعِدَ البعدُ يا عباسُ عن زمنٍ
العيشُ فيه غدا زيفاً وتمويها.

وقد تجاوب الشاعر مع الثورات العالمية، فرثى أبطالها الذين ضحوا بدمائهم في سبيلها كما في قصيدته التي رثى بها شهيد الحرية زعيم الكونغو الخالد البطل «باتريس لومومبا» الذي انقلب عليه رفاقه (كازافوبو، موبوتو، شومبي) وخانوه، ثم قتلوه وأحرقوا جثته، فقال فيهم الشاعر:

«كازافوبو، موبوتو، شومبي
أسماءُ شوهاءُ قبيحة
سجّلوا لومومبا مذبوحاً
ساموهُ الذلَّ وحرقوهْ
خنقوا أنفاسَ الحريّة
قتلوا حارسها لومومبا
لم يرعَوْا حقاً للكونغو
من أجل مصالح شخصيةْ
نالوا لعنات الأبدية».

وفي رثاء صديقه الشاعر محمد يوسف الذي انتقل إلى جوار ربه في الكويت يقول الشاعر:

«إلى جنة الفردوس يا خير صاحب
تُحفُّ بك الأملاكُ من كلّ جانب
رحلت فخلّفت الرفاقَ بوحشة
أسارى الأسى ما بينَ باكٍ ونادب
أبا أحمد عُذراً فإني مقصر
بوصف الذي أعطيتَهُ من مناقب
وأروعُ شيء فيك أنك قدوةٌ
وأنك إنسانٌ عدوُّ العتائب
وأنك قد وُفّقتَ بين حماسة
وبين ثُرات عَرَضةً للتجاذب».

وقد عرف الشاعر للرئيس الراحل ياسر عرفات قدره، حيث اعترف بأنه استطاع أن يحول اللاجئين الفلسطينيين إلى فدائيين مقاتلين، وأنه لم يتنازل عن الثوابت التي تمسك بها الفلسطينيون. يقول الشاعر مصوراً ذلك:

«إلى الفردوس يا أغلى الرجال
ويا رمزَ الحميّة والنضال
فلسطينُ الحزينةُ في بكاء
من الثلب السليب إلى الشّمال
صبرت على التشرد لم تفرطْ
بحق الشعب في المُثُل الغوالي
فما في العودة الكبرى نقاشْ
ولا القدس الشريفة من جدال».

وقد نعجب الشاعر من مرور ربع قرن على استشهاد ولده محمد دون أن يعرف أين دُفن:

«ربعُ قرنٍ مضى ولا زلتُ أبكي
لشهيد لم أدرِ أين ثراهْ
لشهيد قضى بأرض اغتراب
لستُ أدري في أيّها مثواهْ
يا حبيبي ويا ضياء عيوني
كنتَ للقلب خفْقَهُ ومناهْ
كنتَ بدراً يُشِعُّ في الليل حتى
ملأ الأرضَ والسماء ضياهْ
غبتَ عنا فطاب كلُّ سرور
غمر الحزنُ بيتنا بدجاهْ
رسّمك الحلمُ فوق كلّ جدارٍ
لا تملُّ العيونُ من مرآهْ
قد عرفتُ الطريقَ للخُلْد فاهنأ
يا حبيبي بما حباك الله».

وأخيراً، فقد رثى شاعرنا الشاعر الكبير محمود درويش في قصيدة طويلة يقول منها:

«أيها الفارسُ الذي قد ترجّلْ
إنّ حزني عليك يغلي كمرْجلْ
قد تركتَ الحصانَ يبكي وحيداً
رانياً فارساً عنيداً ترحّلْ
لم يُطِقْ فَلْيُكَ الكبيرُ بقاء
بعد عُمرٍ بالحزن والهم مُثقلْ
بعد أن عادتِ اليسوعُ إلينا
تنسجُ الحقدَ في النفوس وتغزلْ
كي تُغذي الصراع ما بين جاسٍ بن بكرٍ ونغلب ومُهلهلْ
في القطاع المكتوب، في الضفة الغبراء في القدس، في الخليل المُثقّلْ».

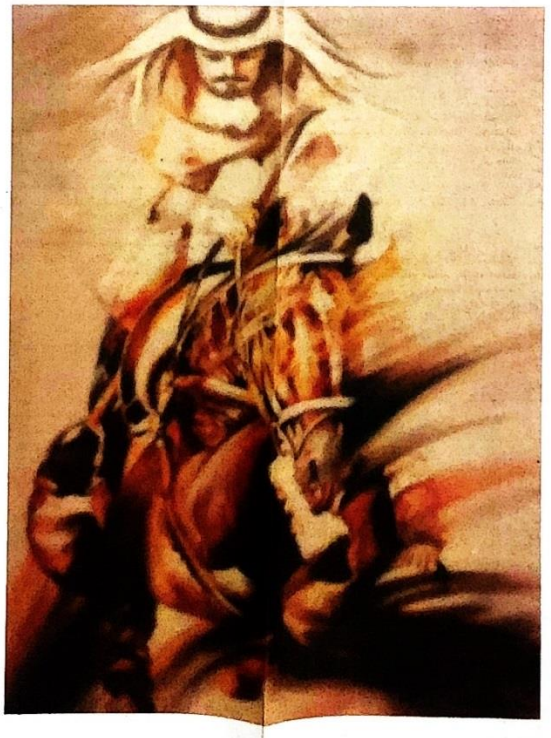

تجربتي الشعرية

د.رجا سمرين

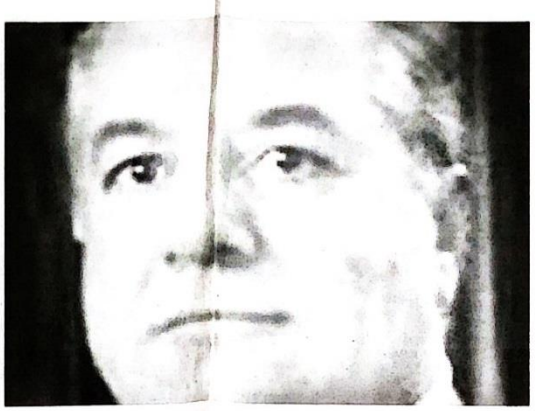

وُلدت في قرية فالوجا من أعمال القدس في السابع من آذار سنة ١٩٢٩. وتلقيت تعليمي الابتدائي في مدرستي فالوجا ولفتا الابتدائيتين. أما تعليمي الثانوي فقد تلقيته في كلية روضة المعارف الوطنية في القدس.

وقد لحقت بأسرتي في القاهرة في ١٩٤٨/٣/٢٣ بسبب عمل والدي الذي شغل منصب المراقب الخاص للحاج أمين الحسيني. وكان وصولي إلى القاهرة قبل سقوط فريتا في أيدي العصابات الصهيونية بعشرين يوماً وقبل الإعلان عن قيام دولة الكيان الصهيوني البغيض بأربعة وخمسين يوماً.

وقد دمر اليهود بلدتنا فالوجا تدميراً تاماً. وكان لذلك أعمق الأثر في نفسي وشعري.

التحقت بقسم البعوث الإسلامية في الأزهر الشريف وأمضيت فيه عاماً واحداً التحقت بعده بكلية اللغة العربية حيث تخرجت فيها العام ١٩٥٥. وفي العام ١٩٦٧ حصلت على درجة الماجستير بتقدير جيد جداً. وكان موضوع رسالتي هو "الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر".

وفي العام ١٩٧٢ حصلت على درجة الدكتوراه عن "شعر المرأة العربية المعاصرة" بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.

عملت في سلك التربية والتعليم في كل من الأردن والسعودية والكويت مدرساً، ومدرساً أول، وموجهاً فنياً ومشرفاً ثقافياً. وقد عدت إلى الأردن بعد خروج القوات العراقية من الكويت وبعد أن وصلت إلى درجة أستاذ مساعد.

عملت بعد عودتي إلى الأردن مدرساً في الكلية الوطنية مدة أربعة أعوام، ثم فرت بعدها إلى التأليف والترجمة والنشر. وقد تزوجت من سيدة مصرية أنجبت منها سبعة أبناء أربعة من الذكور وثلاثاً من الإناث. وقد قُدر لي أن أدفع ضريبة الدم الفلسطيني حيث استشهد ولدي الثاني محمد في ١٩٨٢/٦/٢٥ وهو في الخامسة والعشرين من عمره.

نشرت أكثر من مائة مقالة في صحف العالم العربي ومجلاته. وأجريت معي نحو ١٥ مقابلة إذاعية وسبع مقابلات تلفزيونية.

بدأت نظم الشعر وأنا لم أزل في الصف السادس الابتدائي. وقد وجدت من العناية والإرشاد ممن قاموا بتدريسي اللغة العربية وهم الأساتذة: إبراهيم أبو ندا وتيسير الجاعوني ومحمد العباسي -أبو المأمون- الذي كان مديراً لمدرسة فتا ثم تحول بعد عامين في هذا المنصب إلى العمل في البنك العربي. وكان هؤلاء الأساتذة يطلبون مني في بعض الأحيان إلقاء بعض ما أنظم على الطلاب، ولم يكن يزعجني أحد في ذلك، وفي كلية الروضة ظهر مناضل لي هو الأول الشعر، هو الشاعر (المرحوم) يحيى برزق. وعندما نقدمت للامتحان دخول كلية اللغة العربية أسمعت اللجنة المُشكّلة من الأستاذين: د.حسن جاد ود.محمد عبدالمنعم خفاجي شيئاً من شعري.

فعلق الدكتور حسن جاد على ذلك قائلاً: "ليس هناك من هو أولى منك بكلية اللغة العربية"! فكان ذلك بمثابة بشارة لي بنجاحي في الالتحاق بكلية اللغة العربية.

كنت أشارك في الأصبوحات والأمسيات التي تقام في مدرج كلية اللغة. وكان يشرف عليها د.حسن جاد حسن. وقد قُدر لي أن أشارك في أمسيات جميعة الشبان المسلمين التي كان يشرف عليها د.أحمد الشرباصي، الرائد الديني للجمعية. وقد كان لهذه الجمعية جمهور كبير، وممن كان يشاركني في إلقاء الشعر فيها صديق العمر الشاعر السوري علي دمر، والشاعر المصري عبدالله أبو عيد، والشعراء المصريون صلاح عبدالصبور وكمال نشأت ومحمد فوزي القتيل، والشعراء السودانيون محي الدين فارس ومحمد المهتوري وفاتح السر الحسن وجبلي عبدالرحمن، والشعراء السعوديون إبراهيم هاشم الفلالي وإبراهيم عبدالجبار، والشاعر اللبناني محمد علي الحوماني، والشاعرتان جليلة رضا وروحية الفيلي. وكان مسرح جمعية الشبان المسلمين سبباً في شهرتنا حيث كان من روادها محمد صالح حرب ياشا، والحاج أمين الحسيني وعصابته التي وصلاح خلف ورفاقه.

وفي إبحار ٢٠٠٢ أصدرت أعمالي الشعرية الكاملة التي اشتملت على خمس مجموعات: "عصفة الروح" "الطريق إلى أرض ليلى". "وتبقى الفوارس قرب الجياد". "الضالمون". "بيني وبين الشعراء". إضافة إلى مسرحية شعرية واحدة بعنوان "الجنة الضائعة".

أما المبادئ التي تحكم مسيرتي الشعرية فتتلخص في ما يلي:

المبدأ الأول: ليس من حق النقاد أن يحجروا على الشعراء، أو أن يحددوا المجالات التي ينبغي أن تحلق فيها شاعريتهم وتتطلق في عوالمها الحبلتهم، أو أن يصمموا القوالب التي ينبغي أن يصب الشعراء فيها تجاربهم. وفي ضوء هذا المبدأ فإن تجاربي الشعرية حتماً لا تخضع للإرهاب، ولا تقبل أن يفرض عليها أحد أن تخرج على الناس في ثوب لا ترتضيه أو لا يلائم طبيعتها ومعاناتها.

المبدأ الثاني: أنني لست من الذين وضعوا شاعريتهم في دائرة ضيقة مغلقة، بل أثرت أن أترك لشاعريتي العنان، ولهذا جاءت تجاربي صورة صادقة لحياتي في جميع مناحيها وتقلباتها.

المبدأ الثالث: أن ما يحده القارئ من آثار واضحة لعدد من المذاهب الأدبية في تجاربي الشعرية إنما هو نتيجة لتبنّي مطلقة استدعتها طبيعة التجربة وملابسات التعبير عنها، فهي ليست متعمدة بقدر ما هي مفروضة من قبل المنطلقة القاهرة لطبيعة تلك التجربة، على الشاعر.

وانطلاقاً من ذلك، فإن معظم قصائدي الفنية -كالكلاسيكية والرومانسية والرمزية والسيريالية- قد تركت بصماتها الواضحة على التجارب التي تضمنتها مجموعاتي الشعرية.

المبدأ الرابع: حرصي الشديد على جزالة العبارة ومتانة النسج، وقوة التعبير. وذلك نتيجة حتمية لطبيعة الثقافة العربية الإسلامية التي أنتمي إليها وأعتز بالدفاع عنها ومن مفهوماتها ومزاياها ومعطياتها.

المبدأ الخامس: رفضي لتلك التهمة التي يرميني بها النقاد والتي تتلخص في اتهام أسلوبي بالعنف والمبالغة في الهجاء والتجريح أو ما يسمونه أسلوب جلد الذات.

المبدأ السادس: على الرغم من هذا التنوع الشكلي في تجاربي الشعرية، فإن القارئ يستطيع أن يلاحظ ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بينها. وليس ذلك إلا دليلاً على وجود شخصية شاعرية مستقلة أبى صاحبها إلى أن يكون نفسه على الرغم من سيف الإرهاب الذي يرفعه دعاة الحداثة.

المبدأ السابع: تشتمل مجموعة "عواصف الحريف" على اثنتين وستين قصيدة ومائة وسبع عشرة رباعية وخمس عشرة من المقدرات بينها ست قصائد من شعر التفعيلة ويقينها من الشعر العمودي الأصيل الذي كرسته العيون، وليس بين قصائده كرة، مما يسمى "القصيدة النثرية"، لأنني لا أعترف بها وأرى أنها ما زالت نصاً يبحث عن هوية.

رفيق الدرب

مريم الصيفي

رفيقَ الدربِ يا ابنَ الانتصارِ
سليلَ الأكرمينَ أبا فأزارِ
لئن على دروبِ المجدِ تسعى
حثيثَ الخطوِ في حللِ الوقارِ
عطاؤك مائلٌ في ابنِ شهيدٍ
سما للخلدِ في يومِ الفخارِ
إذا تدعى لغَرْسةِ فأنا
لخطوكَ نائمون على العثارِ
نجلكَ يا معلمنا جميعاً
فأنتَ الرمزُ في حجمِ العطاءِ
تُعلّمُنا دروساً منكَ تحلو
بدربِ النورِ معنى الكبرياءِ
تجلتْ فيكَ نخوةُ يعربي
تحلى بالشهامةِ والإباءِ
سموتَ مهابةً وشرُفتَ أصلاً
فأينعَ فيكَ مورودُ الفداءِ

•••

نحنُ إليكَ يؤلمنا فصيحٌ
بديعُ اللفظِ أحلى المعاني
وتسعدنا إذا ما قمتَ تشدو
لنا بـ"الشفتيات" الحسانِ
فما أحلى سويعاتٍ قضاها
رفاقُ الشعرِ في عمرِ الزمانِ
تفرّدَ في ليالينا بحوزٍ
فتزهو في مجاليها الأغاني

•••

متى نلقاكَ في زمنٍ قريبٍ
فيحلو في ليالينا النشيدُ
تكن لكَ القلوبُ عظيمَ وُدٍ
فأنتَ الصاحبُ الحقُ الوفيرُ
أعدْ من موعدِ نلقاكَ فيه
يبرعمُ فيه تغريدٌ جديدُ
فنهتفُ حينما يلتئمُ شملٌ
لقاؤكَ يا رجاءَ اليومِ عيدُ.

تجربة سمرين في عيون النقاد والأدباء والإعلاميين

د.غالب سمرين

من الذين أشادوا بالشاعر رجا سمرين وشعره، الشاعر الأردني هلال الفارع الذي يقول:

"جاءت إليك فلا ثرى الموعدا
إن الحروف تراك فيها الأوحدا
عزت على الشعراء فاعترفوا بها
فأشر إليها بالبنان لتوجدا
واظمأ تفاعيل القصيد كأنها
درٌ تفلّت القصيد الأجيدا
يا أيها الرجل الذي بايعتُه
بدراً على درب الفوافي مرشدا
تستأنس الخطوات عند تمامه
فتضيء من سهل لتشفي أنجُدا
سبّ الفوافي في مراجلنا فقد
تحيي الحروف على يديك الموقدا
فلأنت فيها قائدٌ ومعلمٌ
ولأنت فيها لا تزال الأصيدا".

وفي قصيدة "استفتاح"، يقول الشاعر المصري محمد يوسف قالوا: تدشن وحدةً في المتشمش
قلتُ: اختشوا.
قالوا: اختشي.
وأدرتُ ظهري.
والطريق ملغم
ذئبٌ وخرتيتٌ ونمس
وأنا أدوب بنار عشقي.. والدي في العشق فيصل
وكذاك أنت
فهل ستسألني لماذا؟
الجلو لايس شغشغي؟!
لا "اختشي"
أتبع سراً يا رجا سمرين
يا صوتي المشاكس في المنافي المعتمة
وأقول إن الأنظمة
لا تحتفي إلا بحنزال غراب
ثم جنرال يبشر بالخراب
وتحتفي بالأوسمة
أما القضية
فاقرأ عليها الفاتحة
والطم بها خديك
واحبس البندقية
يا عمّ مهلا
قال حلمي
الشمس طالعة من الحجر الصدوق
أما تراها؟
فاهتفي
أومأتُ يا حجراً صدقت
غداً تشرّ رؤوس أهل المشمش".

وقد شكر الشاعر خالد فوزي عبده الشاعر رجا سمرين على تقديمه لمجموعته بقوله:

"تقديمك المدُّ عرضٌ
عليه شعري تربع
ما كان أحلاه نقدا
روى خيالي وأشبع
تابعتَه بافتتان
فالأرض للشمس تتبع
سموت قدراً وحاشا
تعلو على الكف إصبع
إن كان شعري نهراً
فأنت للنهر منبع".

ويقول أكرم الشعيري في مقدمة حوار أجراه مع الشاعر في العام ١٩٨٠، ونشره في العدد رقم ٥٠٩ من صحيفة "الرأي العام" الكويتية: "عرفته عن كثب لسنوات خلت فعرفت فيه الصدق والالتزام. الصدق في أحاسيسه ومشاعره، والالتزام في خطه وانحاهاته، وتسخير قلمه شعراً ونثراً في خدمة وطنه، ونصرة قضايا أمته، يعيش مأساتها، ويتفاعل مع أحداثها، يتألم لآلام شعبه المشرد، ويشقى بشقاء أمته المغلوبة على أمرها. فهو إذن التزام أدبي وخلقي ووطني، وذلك هو يفيئي مقومات الشاعر إلى جانب موهبة يحبوها الله فيه صياغة، ويحببها صباً فتدو سليقة وطبعاً".

ويقول ناجح خليل في مقدمة للحوار الذي أجراه مع سمرين في العام ١٩٨١ ونشره في العدد رقم ٤٩٣ من مجلة "مرآة الأمة" الكويتية: "رجا سمرين واحد من الذين يمارسون أدواراً متعددة في المحافل التربوية والأدبية وذلك بحكم شخصيته الأدبية التي تتسم بأبعاد متنوعة، فهو موجه للغة العربية بوزارة التربية، ومعلم بارع للأمسيات الأدبية، وخطيب مفوه، وشاعر رقيق، ومحاور ذكي لماح واسع الأفق".

وتقول الكاتبة الصحفية يسرا الأسمر في معرض تقديمها الشاعر إلى القراء، في مقدمة الحوار الذي أجرته معه في العام ١٩٨٤، ونشرته في العدد ٦٤١ من مجلة "مرآة الأمة" الكويتية: "رجا سمرين شخصية أدبية عرفت بمواقفها المناضلة عن التراث في وجه من يحاولون النيل منه والحطّ من قيمته. وفي كل كتاباته الأدبية كان الصوت الجريء الذي يقف بحماسة إلى جانب الموروثات الشعرية بكل تقاليدها. وهو إلى ذلك شاعر ملتزم، فلما عمّق له شعر غير الشعر التقالي في الأمسيات الشعرية".

وكتب الدكتور كامل السوافيري عن د.رجا في جميع كتبه، "الأدب العربي المعاصر في فلسطين" و"الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر"، و"الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين".

ويقول د.عبد الغفار كراجة في مقالة له عن المجموعة القانية لسمرين: "ضمّت لواقح نفسه، وفتحات صراعه كمثقف عربي باحث عن الحقيقة في زمن أصبح فيه قول الحقيقة ضرباً من التحوف. في هذه المجموعة ينتقل الشاعر من موضوع إلى موضوع مدركاً لأبعاد القيمة الشعرية، متمكناً من بحور الشعر، ممسكاً بدقة المشاعر. حتى إنك لتحسب هذا النوع من الشعر غريباً على الأذن والعين لجودته في زمن أصبح فيه بائع الحلوى شاعراً... شعر هذا الرجل من النوع الجزّل القوي يختار فيه الكلمة بعناية، ويضمنه جرْسَ الفني ببراعة المحترف وإبداع الخيال المتقد من الحزن إلى الألم إلى الشكوى... ثم يحلق بك إلى سماء الهم العربي حتى لتحسب نفسك وأنت تقرأ تلك الأشعار أنك تسير معه في قطار سريع الحركة يمر على مختلف العصور والحياة والمراحل التي مرت بها حركة الشعر العربي. هو يؤمن بشعر تكاد أعباء من يقرضه لا تزيد على أصابع اليدين، ففي غزلياته يقترب من شعر الفحول، وفي مرثياته تشم رائحة محمود درويش، وفي أحزانه الدانية لحسبه الأعشى. لقد حلق في القوافي فطوعها لخدمة الموضوع، فيحور الشعر عنده تُختار وتُستدعى بحسب إيقاع الهم الذي يشاغله ويحرك قريحته. هو لا يحشر الكلمات حشراً ولا تجده يتصيد عرفاً حينما يبحث عن رمز من الرموز".

وقد تحدث عن المجموعة كلٌ من أساتذة النقد الأدبي د.عزالدين الجرّاحي، ود.محمد شحادة علیان، والناقد التونسي كمال العربي الذي أشرف على طباعة مجموعة "الطريق إلى أرض ليلى" والذي يقول في مقدمتها:

"هنا شعر متعدد الأشكال والأساليب. ولكنها أشكال وأساليب ألفها الذوق العربي وكرستها التجارب الشعرية الناضجة القديمة والحديثة على السواء. وهنا شعر يشرّف الشعر، فهو يتغنى بالجمال ويحببه للناس، ويوقظ الضمائر النائمة على واقعها الأليم، ويستنفر الطاقات المحدرة بالشعارات المستهلكة ويحيلها لخدمة أهداف الأمة الكبرى في التخلص من أوزار قرون العبودية والظلام وتحرير الأرض التي اغتصبها كلّ طامع إنه بكلمة واحدة يسمي الأشياء بأسمائها دون لف أو دوران أو مواربة".

ومن كتب عن شعر د.رجا سمرين: د.عبدالرحمن الكيالي ود.جميل سعيد ود.محمد شحادة علیان ود.واصف أبو الشباب.

وقد انتسب الشاعر إلى عدة من الروابط الأدبية والأندية الثقافية من أهمها: رابطة الأدب الحديث، ورابطة الكتاب الأردنيين، واتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، والنادي الثقافي في عمان. كما ورد اسمه في عدد كبير من الموسوعات.

ويقول الأستاذ الناقد منير الزواري في مقالته التي نشرها في العام ١٩٨٩ عن مجموعة د.رجا الثانية: في العدد رقم ١٤٤٠ من مجلة "الرسالة" الكويتية: "إن أهم ما يلفت الأنظار في الديوان هو طغيان القصائد ذات النزعة القومية لدى الشاعر. وإن الشاعر قد انحد من الشعر منبراً يعبر من خلاله عن هموم هذه الأمة وصراعها الطويل مع الاستعمار. وهو ما اصطلح على تسميته بالالتزام. وهو من وجهة نظرنا أرقى أنواع الالتزام".

ويقول الفاضل حسن عبدالهادي في مقالته عن المجموعة نفسها والمنشورة في صحيفة "الوطن" الكويتية: "الشعر ملكة نادرة لأنه لا يأتي إلا من النفوس العظيمة التي أنبتتها التربة الطيبة وأنضجتها التجربة المطلانية الواعية. وسمرين يملك الملكة والتربة الطيبة معاً. ولا يخرج الطيب إلا من الطيب أيضاً. فقد زرع في مجموعته هذه حبة قمح ستنبت في نفوس محبيه عن جيلنا والأجيال المقبلة عشر سنابل، شكراً للكلمة الطيبة حين تأتي بالخير في زمن الجدب والخواء".

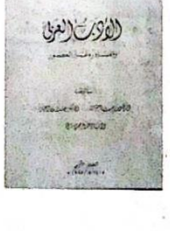

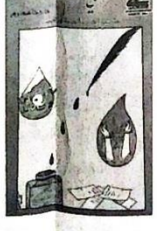

نبذة عن الشاعر

الدكتور رجا محمد سمرين (2018/3/11-1929/3/7) ولد في قرية قالونيا وهي قرية فلسطينية تقع على مسافة سبعة كيلومترات إلى الغرب من مدينة القدس، وقد احتلتها العصابات الصهيونية في الثاني عشر من نيسان –إبريل– 1948م، ودمرتها تدميراً تاماً كما فعلت بغيرها من مئات القرى الفلسطينية.

تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدرستي قالونيا ولفتا وفي كلية روضة المعارف الوطنية في القدس.

تخرج من كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر وحصل على شهادتها العالية عام 1955م.

حصل على درجة الماجستير من الكلية نفسها عام 1967م.

نال درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من الكلية ذاتها مع مرتبة الشرف الأولى عام 1972م.

للدكتور رجا سمرين من الأبناء سبعة: أربعة من البنين، وثلاث من البنات.

أكرمه الله باستشهاد ولده الثاني محمد وهو في الخامسة والعشرين من عمره، في معركة مواجهة بطولية مع العدو الصهيوني في مدينة بحمدون بلبنان في 1982/6/25م .

عمل في مجال التربية والتعليم مدرساً ومدرساً أول، وموجهاً فنياً في جميع المراحل التعليمية الأردن والكويت والمملكة العربية السعودية، وأستاذاً جامعياً في الأردن والكويت.

صدر له ما يلي من المؤلفات:

1. عصور الأدب العربي – بالاشتراك مع خالد الساكت – مطبعة حداد – السلط – عام 1958م.
2. الضائعون – ديوان شعر – الشركة الصناعية – عمان 1960م
3. الجنة الضائعة – مسرحية شعرية – الكويت 1970م .
4. الشعر الفلسطيني في معركة بيروت – اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين – فرع الكويت – عام 1983م.

5. الأدب العربي ومصادره عبر العصور – بالاشتراك مع الدكتور صلاح عيد والأستاذ عبد الرحمن سالم. وهو من إصدار الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب عام 1983م.
6. وتبقى الفوارس قرب الجياد – ديوان شعر – الكويت 1985م .
7. ديوان الدكتور رجا سمرين – دار القبس – الكويت 1985م .
8. شعر المرأة العربية المعاصرة من عام 1945م – 1970م – دار الحداثة – بيروت عام 1990م .
9. الطريق إلى أرض ليلى – ديوان شعر – دار المعارف في سوسة – تونس عام 1990م .
10. بيني وبين الشعراء – ديوان شعر – دار اليراع للنشر والتوزيع – عمان عام 2002م .
11. على دُمَّر شاعر الحب والغربة والحنين – من منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق 1999م .
12. خميلة الروح – ديوان شعر – دار اليراع للنشر والتوزيع – عمان عام 2002م.
13. الأعمال الشعرية الكاملة – دار اليراع للنشر والتوزيع – عمان 2002م .
14. الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر – دار اليراع للنشر والتوزيع – عمان عام 2003م .
15. تحت المجهر – دار اليراع للنشر والتوزيع – عمان 2003م.
16. أوراق الشتات سيرة ذاتية ومذكرات – دار اليراع للنشر والتوزيع – عمان عام 2007م.
17. إمرأة في القمة – رواية أمريكية مترجمة 2011م.
18. عواصف الخريف – ديوان شعر – الأردن الطبعة الأولى سنة 2009، والطبعة الثانية سنة 2019م.
19. صدر له بعد وفاته كتاب في تأبين وتكريم الدكتور رجا سمرين سنة 2019.

ومن الذين كتبوا عن بعض الجوانب الشعرية في شعر الدكتور رجا سمرين في الكتب التي نشرها عدد من الباحثين العرب كما يلي:

1- (محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن) – د. ناصر الدين الأسد، الطبعة الأولى سنة 1960– معهد الدراسات العربية/ جامعة الدول العربية/ القاهرة مطبعة لجنة البيان العربي.

2- (الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين) – د. كامل السوافيري، الطبعة الأولى مطبعة نهضة مصر سنة 1964، والثانية مطابع سجل العرب سنة 1985.

3- (الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر)– د. كامل السوافيري، مكتبة الأنجلو المصرية/ القاهرة الطبعة الأولى سنة 1973.

4- (الأدب العربي المعاصر في فلسطين) – د. كامل السوافيري، دار المعارف/ القاهرة الطبعة الأولى سنة 1975.

5- (الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين) – د. عبدالرحمن الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة 1975.

6- (دور الأدب في معركة التحرير والبناء)–(القسم الأول) – د. جميل سعيد، مطبعة العاني من منشورات مؤتمر الأدباء العرب الخامس، بغداد– العراق، الطبعة الأولى سنة 1965.

7- (الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث) – د. محمد شحادة عليان،دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، الطبعة الأولى 1987.

8- (شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر) – د. واصف أبو الشباب، دار العودة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى 1981.

9- (أدباء معاصرون) – أ.د. فهمي توفيق محمد مقبل، دار المأمون، عمان–الأردن، طبعة 2015.

10- (أفنان وأفياء– بحوث ومقالات إسلامية وأدبية ولغوية ونقدية)– د. محمد سمير اللبدي، دار أورقة، عمان–الأردن، الطبعة الأولى 2019.

11- (السيرة الذاتية في الأردن–الذات والإطار الاجتماعي)– أ. فايز صلاح عثامنه، طبع بدعم من أمان عمان، عمان–الأردن، الطبعة الأولى 2007.

12- (صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني المعاصر)- د. عبدالبديع عراق، مؤسسة الأسوار/عكّا، الطبعة الأولى 2002.

13- (الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني بعد المأساة)- د. أمين صالح محمود العمصي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي- ليبيا، الطبعة الأولى 1995.

14- كتاب في (تأبين وتكريم الدكتور رجا سمرين)- مطابع النور /الأردن سنة 2019.

وقد أورد أكثر من اثني عشر من المعجمات الشعرية وكتب الأعلام الثقافية والموسوعات الأدبية نبذاً عن حياة الشاعر الدكتور رجا سمرين ونتاجه الشعري والأدبي. وكتب الدكتور رجا سمرين مقدمة أربعة دواوين نوردها كما يلي:

- ديوان (ثورة الحجارة)، منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين-فرع الكويت، الطبعة الأولى- مارس 1989. ويضم ما صاغه الشعراء من قصائد في الانتفاضة الفلسطينية الباسلة وخصص ريعه لدعم الانتفاضة وأبطالها الميامي.
- ديوان (نفحات أردنية)، للشاعر خالد فوزي عبده -نشر بدعم من وزارة الثقافة في الأردن، الطبعة الأولى -2002.
- ديوان (نداء الأرض وحجارة الأعماق)، للشاعرة جوهرة سفاريني- مطابع اليقظة، الكويت، الطبعة الأولى- 1984.
- ديوان (جراحات فلسطينية)، للشاعر علي هاشم رشيد، من منشورات حركة التحرير الوطني الفلسطيني/فتح، مكتب الإعلام-الكويت، طبعة أولى -1984.

قام الدكتور رجا بالتقديم والمشاركة في أكثر من أربعين أمسية شعرية وندوات ومحاضرات أدبية وسياسية في كل من الكويت والأردن ومصر.

أجريت معه لقاءات شعرية وأذاع بصوته أكثر من سبعين حديثاً إذاعياً في الكويت ومصر والأردن وكندا، وقدم الأستاذ واصف منصور عدداً من الأحاديث عن شعره في إذاعة الرباط.

نشرت صحف ومجلات العالم العربي أكثر من مئة من مقالات وشعر الدكتور رجا سمرين.

أجرى معه المذيع المصري أحمد يوسف عدة لقاءات متلفزة على قناة النيل الثقافية. وأجريت معه مقابلة تلفزيونية في منتصف التسعينيات في برنامج بعنوان (أهل العزم) – تلفزيون الأردن. ومقابلة مطولة من جزئين بعنوان (التاريخ الشفوي للنكبة الفلسطينية) على الموقع الالكتروني (يوتيوب).

أخرجت المخرجة الفلسطينية السينمائية "امتياز المغربي" فيلماً قصيراً بعنوان (قافية النكبة) والفيلم قدم لقائين مع الشاعر الدكتور رجا سمرين (من قالونيا) والشاعرة مريم الصيفي (من الولجة) أكّدا فيه على حقهما ونسلهما في العودة... وقد كتب الأستاذ (عودة العودة) مقالاً بعنوان (السينما الفلسطينية..المتاعب كثيرة!) حيث استضافت لجنة السينما والمسرح في رابطة الكتاب الأردنيين في أمسية المخرجة امتياز المغربي عرضت فيها من إخراجها ثلاثة من الأفلام القصيرة وهي (موت مؤجل)، (اعتقال)، (قافية النكبة).. تدور فكرة هذه الأفلام حول حلم العودة، وعن ظلم وقهر الاحتلال، والممارسات الوحشية الصهيونية من سجن وقتل وتعذيب وتدمير على مدى أكثر من سبعين عاماً منذ الاحتلال الغاشم عام 1948. وقد نال فيلمها "موت مؤجل" جائزة مهرجان الاسكندرية السينمائي.

هذا وقد جيء على ذكر الدكتور رجا سمرين عدد من المواقع الالكترونية على الشبكة العنكبوتية.

حصل الدكتور رجا سمرين على عدة دروع تكريمية وشهادات تقدير من عدد من الهيئات الاجتماعية والمؤسسات الثقافية نذكر منها ما يلي:

- درع "رابطة الكتاب الأردنيين"، نوفمبر 2014 بمناسبة إبداعه وعطائه الجم على الساحتين الأدبية والثقافية.
- درع تكريم من "صالون الشاعرة مريم الصيفي وروادة"، يوليو 2014 لما قدمه محلياً وعربياً للساحات الأدبية والتربوية والوطنية.
- شهادة ودرع شكر وتقدير من "جامعة البتراء الأردنية" للمشاركة في الاحتفاء بميلاد فارس السيف والقلم برهان الدين العبوشي، يناير 2012.
- درع تقدير وإعزاز من جامعة "جدارا الأردنية". في الألفينيات.

- شهادة تقدير من أسرة أدباء المستقبل/مهرجان الإبداع لرائد الجيل الدكتور رجا سمرين، عام 2003.
- شهادة تقدير من فرع اتحاد الكتاب العرب فرع –حماة– سوريا – تحت رعاية محافظ حماة– عام 2009 بمناسبة مرور ربع قرن على وفاة الشاعر السوري علي دُمَّرْ.

دروع تكريمية على مسيرته الحافلة في العطاء لرفع اسم "قالونيا" لتبقى حية في ذاكرة الأجيال:

- درع آل عسكر خطاب عام 2016.
- درع تكريم من جمعية قالونيا الخيرية عام 2014 (فرع فلسطين)
- درع تكريم من جمعية قالونيا الخيرية عام 2018 (فرع فلسطين)
- درع تكريم من جمعية قالونيا الخيرية عام 2017 (فرع الأردن)